7

قبرص: حالة دراسة في النزاع العرقي

تحولت أزمة قبرص إلى حدث رُشيمي بالنسبة لرئاسة فورد. تعود جذورها إلى قرون خلت، كانت المشاعر عميقة بحيث إنه لم يكن يشعر أحد من العِرْقَيْنِ أنه ينتمي إلى الآخر. ولكن قبرص كانت السباقة في النزاع ما بين مجموعتين عرقيتين والذي ازداد باستمرار وهدّد بالخطر منذ عقود. كما كان لها تأثيرها على اندفاع إدارة فورد إلى صدام مفاجئ وغير متوقع مع الكونغرس.

في الأشهر الأربعة الأولى من رئاسة فورد قطع الكونغرس المساعدات العسكرية عن تركيا، الحليف الاستراتيجي الذي لا يمكن الاستغناء عنه، والتي كانت تضم 26 منشأة ترصد منها الولايات المتحدة الصواريخ الروسية والتجارب النووية. وما إنْ تأسس نمط من الإدارة الموسعة حتى تتابعت اجراءات متسارعة: تعديلات جاكسون ــ فانيك وتعديل ستيفستون في ك1 1974، الذي يحد بشدة من التجارة والاعتمادات مع الاتحاد السوفييتي، وقطع المساعدة عن الهند الصينية في آذار 1975، ومنع المساعدات عن مجموعات من أنغولا كانت تقاوم القوات الاستكشافية الكوبية في ك1 1975، وفرض القيود على كثير من النشاطات المختلفة الأخرى. واستمر الاتجاه نحو الحد من حرية تصرف الرئيس في السياسة الخارجية ـ إن لم يُسرّع ـ في تلك الفترة.

كانت محنة قاسية تلقى على عاتق رئيس غير منتخب باندفاع نحو الاضطراب الكبير للمشاعر اليونانية ــ التركية. وكان من الظلم أن يكون فورد ملتزماً بعمق بتعاون تنفيذي تشريعي وثيق في حين أنه لم يكن مسؤولاً عن القرارات التي أثارت النزاع بين هذين الفريقين في المقام الأول.

وُضِعَ الاتجاه الأساسي في سياسة قبرص في الأسابيع الأخيرة من إدارة نيكسون، حيث حدث خلالها انقلاب عسكري يوناني في الجزيرة لحقه غزو تركي لقمعه. وعندما شنت تركيا هجوماً جديداً لليوم الرابع لرئاسة فورد كان الرجل ينفق جُلّ وقته تقريباً في شرح مسؤولياته والتعرف على الموظفين الجدد. لم يكن فورد على اطلاع كاف على قضايا قبرص كي يواجه المشكلة. حتى ولو كان نطاقها معروفاً، وكان مجال العمل فيها ممكناً، وهذا ما أشك فيه. وهكذا، لما كنت أنا وسيلة الاتصال الرئيسية للإدارة السابقة فقد كان يفترض بي أن أضطلع بالمسؤولية الرئيسية لاتخاذ القرارات.

obeikandi.com

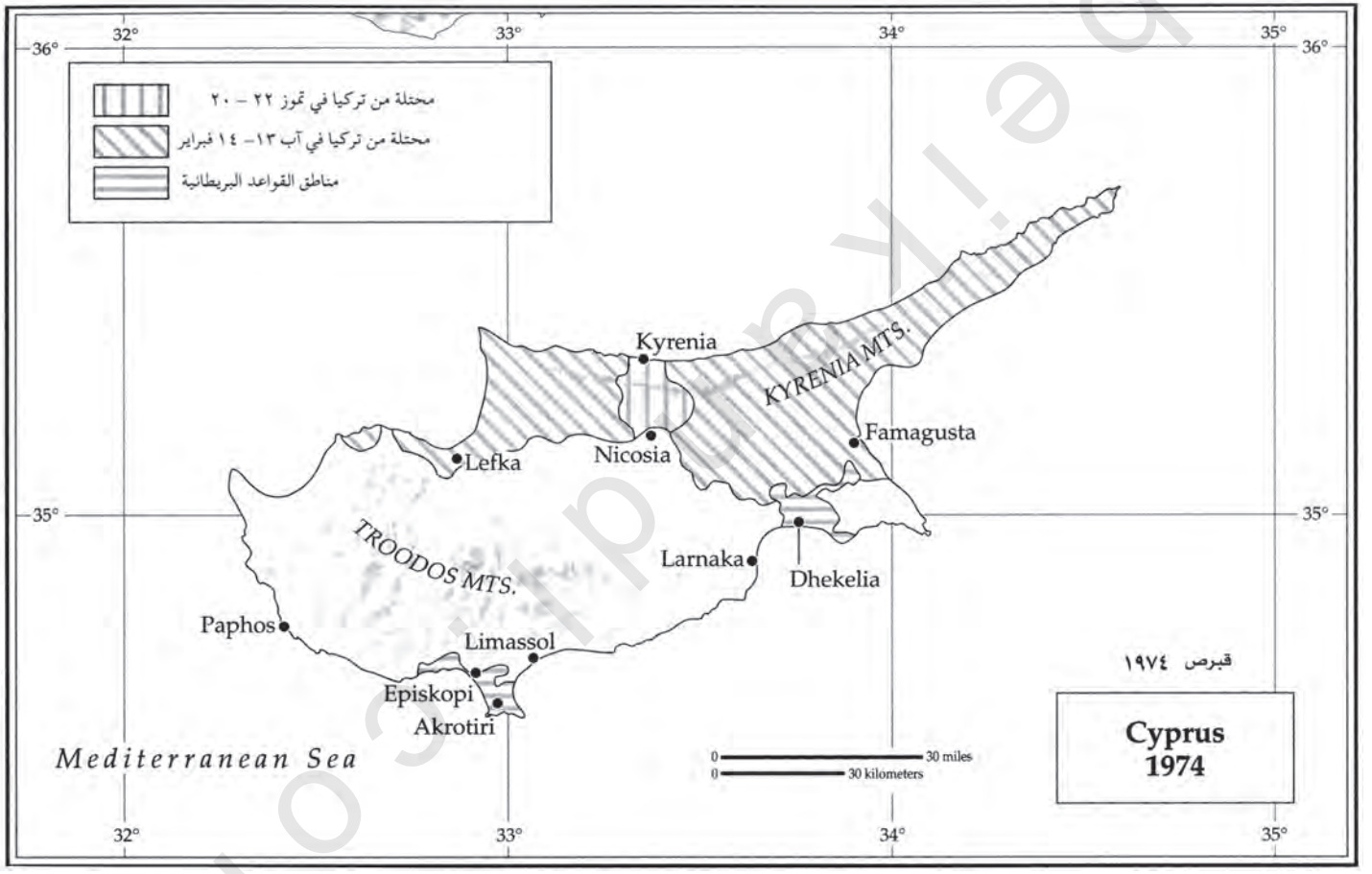
محتلة من تركيا في تموز ٢٢ – ٢٠
محتلة من تركيا في آب ١٣– ١٤ فبراير
مناطق القواعد البريطانية
32°
33°
34°
35°
36°
Kyrenia
KYRENIA MTS.
Famagusta
Lefka
Nicosia
TROODOS MTS.
Larnaka
Dhekelia
Paphos
Limassol
Episkopi
Akrotiri
Mediterranean Sea
0 30 miles
0 30 kilometers
قبرص ١٩٧٤
Cyprus
1974

منـذ ذلـك الحين ظهرت أسطورة، ولا سيما بين مؤيدي وجهة نظـر اليونان: أن نيكسون وأنا كنا نزيد الأزمـة اشتعالاً ضد المطـران مكاريوس الثالث، رئيس جمهورية قبرص، أو متحالفين مع تركيا لأهداف جيوسياسيـة غيـر معلومة. تلك الأقوال كانت تكشف كيف تسيطـر العواطف العرقية على التفكير الجدي. وللتأكيـد اتخـذت أنا ونيكسون بعض الاحتياطات تجاه سياسـة ماكاريوس. ولكنها كانـت مثيرة للسخط قليـلاً. لـم يكن لقبرص إلا أولوية بسيطة فـي الخطة العامـة لإدارة الأمور. ولم نكن بحاجـة في الأشهر المنهكـة الأخيـرة من رئاسة نيكسون إلى حـرب بين حليفين في «الناتو» ونضـال عرقي في جزيرة نائية. التاريخ الكامل حول تفاعل اليونانيين والأتراك حول قبرص لم يكتب بعد. وفي هذا الفصل سأكرس نفسي للحديث كيف بدتْ هذه الأزمة على مستوى صنع القرار في واشنطن.

طبيعة النزاعات العرقية

أدخلـت قبرص الولايات المتحدة في دراما غير مألوفة للنزاع العرقي. ومنذ ذلك الحين تفجرت مثل تلك النزاعات في أماكن كالصومال، والبوسنة، وناغورنو كاراباخ (فصيل أرمني في أذربيجان)، ولبنان، وراونـدا، والشيشـان، والكونغو (زائير سابقـاً). وقبل قبرص أبعدت الأحـداثُ الدراميةُ في عهد نيكسون ــ حربُ فيتنام، والانفتـاحُ على الصين، والعلاقاتُ مـع الاتحاد السوفييتي، وتعزيزُ حلـف الناتو، وأخيراً حـربُ الشرق الأوسـط ـ الستارةَ الخلفيةَ للحرب الباردة، والاعتمادَ الرشيدَ على عقلانية القوى العظمى. تحدث الأزمات عندما تختلف الدول الكبرى في تقويمها للمخاطر، وتنتهي بالتسوية عندما يترافق حساب المخاطر مع التهديد أو الدبلوماسية.

طيلـة فترة الحرب الباردة تعاونت القوى العظمى بشكل دقيق لاحتواء النزاعات العرقية أو إخضاعها لمتطلبـات تـوازن القوى. شلالات الدم فـي الشرق الأوسط وبيـن الهند وباكستان، جعلـت الدول تقترب مـن إجمـاع دولي، وكبح جماحها إلى حد ما عـن طريق الاعتماد على الدول الكبـرى من أجل التجهيزات العسكرية، والمساعدة الاقتصادية، والدعم الدبلوماسي.

كان نزاع قبرص نوعاً مختلفاً من أشكال النزاع، ازداد شيوعاً مع تراجع المنافسة الدولية. في النزاعات العرقية المتنافسون لا يدفعهم عامل الاستقرار، إنهم يحنّون إلى نوع من العصر الذهبي الأسطوري حيث تعتقـد كل جماعـة أنها هي المسيطرة، وطلبات المصالحة كانت تعتبر تهدئة لا تغتفر من الخصم. وظلت الأحقـاد والعداوات مستمرة لعدة قرون، بدون أن يكون هناك أية فرصة لتسوية، والتي تعتبر على أية حال بمثابة هزيمة تاريخية. الخريطة الوطنية المثالية لكل جماعة لا تقارن بخريطة عدوتها. ولم يكن يقبل أي منافس نتيجة تعتمد على الإيمان الصالح للخصم من أجل تجسيد أولاد كل جيل. في هذه الظروف تصبح مشاركة الدول تناقضاً من حيث المعنى.

ومن دواعي التناقض أن الخضوع إلى طرف خارجي أقوى، كان أكثر اعتدالاً من حكم الخصم العرقي الكريه الذي يحتل الأرض ذاتها. لهذا السبب كانت البوسنة أقل عنفاً تحت حكم النمساويين والأتراك، أو الحكم الشيوعي، منها عندما طُلب من مجموعاتها العرقية أن تقيم دولة عرقية متعددة الأعراق. وهذا ما كان ينطبق على قبرص تحت الحكم البريطاني.

بالنسبة لجيرالد فورد كان هذا يعني، منذ الأيام الأولى لرئاسته، أنه وجد نفسه منغمساً في أزمة لا تتوفر لها نقاط إرشاد في التجربة الأمريكية. والحق أن ما يجعل النزاعات العرقية صعبة جداً بالنسبة إلى الأمريكيين أن التعامل معها يكرس المبادئ الأمريكية التي تصطدم معها حتماً.

إن مفهوم حكم الأكثرية لا معنى له عموماً إلا إذا كانت هناك فرصة للأقلية أن تصبح أكثرية أو عندما تكون التقاليد القانونية من القوة بحيث تحصل الطلبات المقدمة إلى المحاكم على فرصة تغيير الحكام القضائية. وكلا الشرطين لم يكن متوفراً في قبرص. لم تكن الأقلية التركية تحمي نفسها من خلال المطالب الدستورية في المحاكم، بل بالتمترس في مناطق محصنة. ومع عدم وجود نظام سائد من القيم المشتركة، فإن تقرير المصير وصل إلى حد الانفصال، وسيطرة حكم الأكثرية بعد عشرين سنة أصبحت المعادلة نفسها سارية في البوسنة.

كان موقع قبرص الجغرافي بين أوروبا والشرق الأوسط قد أعطاها هذه الأهمية الاستراتيجية ومزيجها العرقي. ثمانية قرون من حكم الإغريق منذ أيام البيزنطيين، قد أغنى الأغلبية اليونانية التي باتت تشكل 80 % من السكان، ثلاث مئة سنة من الحكم العثماني ابتداء من عام 1571، معززة بالقرب الجغرافي، قد ركزت الأقلية التركية في الجزء الشمالي من الجزيرة القريب من تركيا (انظر الخريطة). وفي عام 1878 أهدى مؤتمر برلين قبرص كمكافأة لبريطانيا تعويضاً عما كسبه الروس في البلقان وكطريقة لتعزيز قدرة بريطانيا على حماية منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط من التعديات الروسية.

طالما كانت هناك سيطرة أجنبية على قبرص فقد ظلت العداوات العرقية في الجزيرة هادئة. ولكن ما إن وصلت المطالبة بإزالة الاستعمار في أواسط القرن العشرين مداها، أصبح النزاع المدني حتمياً. وتحولت مبادئ الأكثرية وتقرير المصير إلى مبادئ لا تقبل المناقشة. طوال قرون كان اليونان والأتراك يتبادلون العداوة التي كانت تدفعهم أحياناً إلى ارتكاب مذابح وفظائع أخرى. وكانت كل مجموعة عرقية تقدم الدليل المقنع عن سبب عدم ثقتها في حسن نية الطرف الآخر.

حسابات الحرب الباردة الخاصة بالردع والانفراج لم تنطبق على قبرص. كما لم تهتم الأحزاب القبرصية كثيراً بالتنافس الدولي — إلا ربما من أجل المساومة. وخشية أن يضعف الجناح الشرقي الاستراتيجي للتحالف الأطلسي حاولت الولايات المتحدة أن تحقق العدالة لكلا الطرفين، اللذين كان يتميز سلوكهما بالإزدراء نحو الآخر.

بسبب أن هذه الاهتمامات قد عكست الأخطاء الكلاسيكية الخاصة للنزاعات الطائفية لم يكن من السهولة تخطيها. فالأغلبية اليونانية كانت تصر على دولة واحدة مما يحول الأتراك إلى أقلية دائمة أي إلى عزلها. وكانت الأقلية التركية تطالب بتكوين فدرالي مع التصويت المتعدد (بحق النقض) مما يوصل بالعداوات العرقية إلى حد التقسيم.

في عام 1959 حاول البريطانيون الوصول إلى ترتيب رُفض منذ البداية لأنه سعى إلى حل المطالب غير القابلة للحل جوهرياً لكلا الطرفين بالموافقة عليها إجماعياً. وأوجدت ما دُعيت باتفاقيات لندن ـ زيوريخ دولة مستقلة موحدة يرأسها رئيس يوناني قبرصي، ونائب رئيس تركي، ينتخب كلاهما من قبل مجموعتيهما. وكان لنائب الرئيس التركي حق النقض المطلق في شؤون الدفاع والسياسة الخارجية، ويفترض أن يحظى بأغلبية أصوات الأعضاء الأتراك القبرصيين في الهيئة التشريعية، وكذلك حق النقض في المسائل المالية.

هذا المزيج من عدم التوافق قد ضمنته الحكومة البريطانية، واليونان، وتركيا. وفي حال استحالة العمل المنسق من جانب الأقليات اليونانية، فمن حق كل طرف أن يسترجع الحق الفردي للتدخل «بهدف إعادة النظر في الأمور التي أوجدت المعاهدة». ولإنجاز ذلك سُمح لتركيا واليونان بأن يكون لهما وحدات عسكرية على الجزيرة مع وجود قاعدتين جويتين بريطانيتين.

بدت الفكرة أن المعاهدة غير العملية التي يمكن أن تحميها بضمانات غامضة ينفذها الأطراف من أجل ألا يوافقوا على الشروط التي توقعوا أن تقام. التجربة الوحيدة التي يمكن مقارنتها بهذه كانت كما سنرى في لبنان، فهي ستقاسي نفس مصير قبرص في نهاية رئاسة فورد ـ فترة من السياسة الخارجية مؤطرة «بالنزاع العرقي».

ماكاريوس: المطران المقتدر

تعاظمت القوة الانفجارية لقبرص بالشخصية الاستثنائية لمؤسسها الرئيس، المطران ماكاريوس. ابن راعي الكنيسة وصل وأصبح الكاهن الأعلى مرتبة في قبرص كما لو كان رئيسها ـ تراث الأرثوذكسية اليونانية اجتمع مع القيادة السياسية الدينية والعلمانية. كان على درجة عالية من الذكاء، ومستعداً جيداً بصورة دائمة، ومن خلال تكتيكياته وطريقة متابعة أهدافه المنفردة، استلم ماكاريوس السلطة.

كان زيه الكنسي وثقته الشديدة بنفسه يتجليان في ذكائه وعينيه النافذتين اللتين تبدوان دوماً أنهما تحسبان كيفية التغلب على المفاوض الآخر ـ والبند الوحيد المطروح للمناقشة هو مقدار ما يحققه من تقدم ـ وليس الحقيقة نفسها.

وبالنتيجة فإنه إذا حاول أحدهم أن يكسب مكاريوس، عليه أن يحاول كسب ثقته، التي تعتبر شرطاً أولياً للدبلوماسية الفعالة. اهتمامه الضئيل بوجهة نظر (أو حتى ازدراء) الطرف الأخر جعله لا يفهم

أن اكتساب الثقة مسألة عملية تماماً كالدافع الأخلاقي. صحيح أن مسؤولية رجل الدولة الأولى هي أن يهتم بمصالح بلاده. ولكن من الحكمة، والنجاح على المدى الطويل أن يفهم أن تلك الاتفاقيات مرشحة للاستمرار إذا وجد فيها الطرف الآخر فائدة له. ففي السياسة الخارجية يقابل المرء الأشخاص أنفسهم مراراً وتكراراً. والمراوغة أو الاستخفاف بالخصم لا تجعل منه شريكاً حقيقياً. وأية اتفاقية دولية ينبغي أن تنفذ من قبل دول مستقلة، وعلى قدم المساواة.

كان مكاريوس يرفض مثل هذا التفكير. ربما كان يشعر، كرجل دين متميز، أن عليه أن يمارس المهارات التي منحها الله له إلى أقصى حد. والأرجح أنه كان يعتبر موقفه شديد التحسب للمخاطر بحيث يأخذ بعين الاعتبار وجهة نظر مفاوضيه، ومعظمهم من خصومه.

وجد المطران نفسه في موقف معقد بشكل غير عادي. فحرب الاستقلال القبرصية كانت تدار من قبل الجنرال جورج غريفاس من الأرض الأم ـ اليونان. كان غريفاس مدافعاً متحمساً عن الاتحاد مع اليونان. أما مكاريوس فكان يفضل رئاسة دولة مستقلة بدلاً من أن يقود محافظة يونانية. أما الزعماء السياسيون الديمقراطيون في الوطن الأم ـ اليونان، فرغم تظاهرهم بقبول الاستقلال لفظياً للقبارصة اليونانيين الذين يشكلون غالبية سكان قبرص، فإنهم لم يكونوا متحمسين لمواجهة شخصية مكاريوس القوية من أجل قيادة اليونان كلها. ولكن عندما استلم الزمرة العسكرية السلطة عام 1967 بات مكاريوس بمثابة عقبة في أثينا أمام إنجاز المهمة القومية لليونان.

كذلك كان مكاريوس لا يحظى بثقة تركيا بدرجة أكبر، فقد كان يُعتبر المدافع العنيد عن وحدة الدولة القبرصية، ويعارض بشدة حقوق الأقلية التركية. كما لم يكن لدى بريطانيا، القوة الضامنة الثالثة أية ثقة بالمطران.

ومن أجل أن يحمي مكاريوس نفسه من تدخل اليونان، والضغط من جانب تركيا، فقد كان يميل إلى اتباع نهج جمال عبد الناصر في مصر، ومعمر القذافي في ليبيا، بالتحالف مع العناصر الراديكالية «لحركة عدم الانحياز». وبالإضافة إلى ذلك، وبخاصة بعد أن استولت الطغمة العسكرية على السلطة في أثينا عام 1967، بات ماكاريوس يعتمد بشكل متزايد على الشيوعيين القبرصيين لمساندته داخلياً ضد من يحركون الأمور من الوطن الأم. وهذا ما دفعه إلى أن يسارع إلى عقد صفقة أسلحة مع التشيكيين لتسليح وتدريب الحرس الجمهوري ضد أي انقلاب محتمل توحي به أثينا، وكان يزيد من هامش حريته في نزاعات قبرص العرقية.

كان موقفي من ماكاريوس يعكس المتناقضين. فكطالب في تاريخ الدبلوماسية، كنت مطلعاً على التقليد البيزنطي الذي يمثله، والذي انتهجه سادة الدبلوماسية الغربية من أمثال ريشيليو أو ميتران. كنت أحترم الحذق وبرودة الأعصاب اللذين كان يظهرهما ماكاريوس في الأعمال ذات الطابع الرفيع.

وفـي الوقت نفسه، وبصفتي وزيراً للخارجية، كنت أقلق أحياناً من الاتجاهات التي يقوده إليها مفهومه عـن المصلحـة الذاتيـة، ويستبعد القـوى العظمى التي كانـت تؤيده فـي المفاوضـات. ولكنني أعتبر ماكاريوس ـــ وليعذرني أعوانه ـ بمثابة ضريبة بغيضة أكثر ممـا يشكل خطراً. ولم يحدث في أي وقت أثنـاء عملي فـي الحكومة أن اتخذنا أي إجـراء للتخفيف من قبضته على السلطـة. احتفظنا بعلاقات احترام وحذر معه.

وفي 5 آب من عام 1974، بعد انقلاب 15 تموز ضد ماكاريوس، وقبل أن يستلم فورد السلطة، عرضت هذا التقويم لمكاريوس أمام كبار موظفي وزارة الخارجية من زملائي:

> لـم نفكر أبداً أنه «كاسترو قبرص» والحق أنه لـو كان الخيار لنا لما اخترنا الانقلاب، بل ولكنّا تعاونّا معه أيضاً جيداً. لم تكـن مسألة تعايش، ونحن لا نعتبره معادياً لأمريكا على نحـو خـاص، خلفيته الأساسية أن مواهبه كبيرة جداً بالنسبة لجزيرته، ولهـذا يمكن أن يتعرض لإغراء القيام بدور غيـر مريح. ليس بالنسـبة لنا، بل للأطراف الأخرى المعنية بالمسألة القبرصية.
>
> عندمـا كان يقـال إن كل ما يقولـه ويفعله مكاريوس، هو السبـب المباشر لمعظم توترات قبرص، فإنه كان أفضل أمل على المدى الطويل لحل سلمي. ولو أنه لم يتخلَّ عن مناوراته لكان بالتأكيد رجلاً عملياً بالنسبة لاحتياجاته.

كانـت آخر مرة قابلت فيها ماكاريوس فـي هيليسنكي عام 1975 عند اختتام «مؤتمر الأمن الأوروبي». في ذلك الوقت كانت القوات التركية تحتل 35% تقريباً من أراضي قبرص. ومن أجل تحريك المفاوضات المجمـدة وافـق مكاريوس على تخصيص منطقة تركية ذات حكم ذاتي من الجزيرة، وهو ما كان يرفضه بإصـرار حتـى ذلك الوقت. وناقش بأن هـذه المنطقة يجب أن تكون مطابقة لنسبـة سكان الأتراك، أو ما يعادل 20% من مساحة الجزيرة. وأضاف بأنه مستعد لتسوية لمنحهم 25%، عارضاً خريطة تبين لي أن نسبتهـم 30%. عندمـا أشرت إلى هذا، ارتبك مكاريوس وانزعج من بـلادة ذهني، وقال «أنا حددت ماذا تشكل نسبة 25%».

كان مؤتمـر هيليسنكـي أيضـاً مناسبة لعرض واحـدة من أمهر منـاورات المطـران. وكان فورد وأنا غاضبين من جراء بعض تصريحات ماكاريوس، مما جعله يمتنع عن منحه فرصة لمقابلة خاصة. عندما أخبرت المطران بذلك لم يهتز، وقال بطريقة لا تدل على الانزعاج «سنرى». ولدهشة فورد أنه وجد نفسه فـي غرفة تقديم القهـوة لرؤساء الوفود، جنباً إلـى جنب مع ماكاريوس لمدة ساعـة. كيف رتب المطران ذلك لا يعلم أحد. ولم أستطع أن أجد مسؤولاً فنلندياً يشرح لي كيف تم ذلك، وما تزال هذه المسألة لغزاً بالنسبة لي حتى كتابة هذه السطور.

مذكرات يونانية . تركية

انهـارت اتفاقيـة لندن ـ زيوريخ في غضون ثلاث سنوات. فمكاريوس لا يود أن يقدم أي نوع ذي قيمة مـن الحكـم الذاتي للأقلية التركية لخوفه من أن تنسحب؛ والأقليـة التركية كانت تتهم حكم الأكثرية بأنه يحرمهـا من حقوقها الشرعيـة. وعند نهاية عام 1963 كسر ماكاريوس موقـف الجمود بفرض 13 تعديلاً على الدستور الذي يقوم على دولة موحدة تحكمها الأكثرية.

كان لا بد من نشوب العنف بين الجماعات العرقية. وقد شملت أعمال العنف هذه مجزرة في حي تركي فـي نيقوسيا قادهـا السفاح نيكوس سامبوس، الـذي اضطلع بدور رئيس في أحـداث عام 1974. في عام 1964 عقـد مؤتمـر للطرفين في لندن (ثم في جنيف). وفشل المؤتمـر كما فشلت وساطة أمريكية قامت بهـا بعثـة برئاسة نائب وزير الخارجية جورج بول. وهددت تركيا بالغزو لحماية مقاتليها وانسحبت عندما وصلتهـا رسالـة تحذير من الرئيس ليندون جونسون بأنه إذا قام الاتحـاد السوفييتي برد فعل، فإن حلفاء تركيا قد لا يقرون «بالالتزام لحماية تركيا ضد الاتحاد السوفييتي...» [1] بعبارة أخرى: إنَّ حلف الأطلسي لن يتدخل، وستترك تركيا تحت رحمة الاتحاد السوفييتي.

لـم تُوجَّه مثل هذه اللغة إلى أي عضو في حلـف «الناتو» من قبل، ولن تستخدم ثانية لأي سبب معقول: فحلف الناتو، حسب المتفق عليه، يحمي أعضاءه ليس كضحايا لاعتداء محتمل، بل من أجل مصالح الأمن القومـي لجميع الأعضاء، بما فيها الولايات المتحدة. وتلـك كانت حالة تركيا على وجه التخصيص، ذات الموقـع الجيوسياسي الـذي لا يمكن الاستغناء عنه. بإلقاء الشك على هـذه الحقائق المنطقية الجوهرية حولـت رسالة جونسون ضمانة حلف «الناتو» من ضرورة استراتيجية إلى شأن يتعلق بالسياسة الأمريكية. ومـع أن تركيـا تخلـت عن المحاولة، فقـد فعلت ذلك على حسـاب الأحقاد التي غلّفـت أزمات قبرص في المستقبل.

فـي أعقاب أزمة 1964 مباشرة، حاولت اليونان أن تجابه التهديد التركي بالغزو بإرسال قوة من اثني عشـر ألف مقاتـل يوناني إلى قبرص. وفي عام 1967، بعد صدام عرقي بـدأ بهجوم يوناني ـ قبرصي على قرى تركية، هددت تركيا مرة ثانية بالغزو، وأرسل جونسون مرة أخرى مبعوثاً خاصاً هو سايروس فانس، الـذي كان فـي بداية عملـه الدبلوماسي. لم تنجـح بعثة فانس في حـل النزاع الطائفي أكثـر من الجهود السابقـة، مـع أن العسكريـين اليونانيين عملوا على سحـب 7 آلاف رجل من قواتهم مـن الجزيرة. وتعهد الفريقـان القبرصيان بالشروع بمباحثات بين الطائفتين. جميع خيبات الأمل هذه زادت من احتمال لجوء تركيا إلى استخدام القوة في المناسبة التالية.

وعندما استلم نيكسون الرئاسة، كانت الطغمة العسكرية اليونانية منبوذة داخل حلف «الناتو»، وكانت الحكومـة البرلمانيـة التركية ضعيفـة، والجيش التركي قلق، فقـد كان ماكاريوس يهمّشـ الأقلية التركية

خطوة بعد خطوة. ورداً على ذلك قامت عدة مجمعات تركية ـ مسلمة بصورة غير شرعية من قبل الأتراك. ولـم تستطع الحكومة المركزية القبرصية السيطرة عليها. ولو غلـى المرجل أكثر لكان التدخل العسكري التركي محتملاً. وبالإضافة إلى كثير من المشكلات الساخنة في الهند الصينية، والشرق الأوسط، والهند / باكستـان، لـم يكن لدينـا إلا القليل من المبادرة للحيلولة دون وقـوع اضطرابات في منطقة، كانت حتى الآن على الأقل، هادئة.

بـدا الهدوء، على أية حال، النتيجة الأفضل التي يمكن تحقيقها. إذ إن أياً من المجموعتين العرقيتين القبرصيتيـن لـم تكن مستعدة لتسوية أو إعطـاء خصمها اليد العليا في اتخاذ القـرارات التي تؤثر فيها. فالفيدرالية قد جوبهت برفض الأكثرية اليونانية لأنها تضمن استقلالاً ذاتياً للأقلية التركية. كما أن حكم الأكثريـة كان مرفوضاً من الأقلية التركية بسبـب وضعهم الأدنى الدائم. وتقسيم الجزيرة بين اليونانيين والأتراك كان غير مقبول من جانب مكاريوس «وحركة عدم الانحياز». وكان الاتحاد السوفييتي يعارض أية زيادة في نفوذ «الناتو» في قبرص من قبل اليونان أو تركيا.

من وقت إلى آخر كانت الولايات المتحدة تتحدث بلغة تسوية تفيد بأن أي شيء يقبله الطرفان القبرصيان سيكون مقبولاً لنا. ولكن هذه العبارات كانت فارغة بالنسبة لكلا الطرفين، إن لم تكن ساخرة. إذ لم تظهر أية صيغة خلال فترة حكم 8 إدارات أمريكية ألزمت نفسها بمعالجة المشكلة منذ اتفاقيات لندن ـ زيوريخ. في الأنماط الكلاسيكية، للنزاعات العرقية، كما تبين في لبنان والبوسنة، لا تظهر الحلول في أعظم الأوقات إلا من خلال انتصار كامل لجانب ما، أو من إنهاك مشترك، أكثر مما يظهر من إسهام الوسطاء.

ظلت قبرص هادئة معظم فترة ولاية نيكسون الأولى، رغم تدهور العلاقات بين المجموعتين العرقيتين باستمـرار. في ك2 1972 عُلم أنه بمباركة من ماكاريوس تـم استلام آلاف قطع السلاح التشيكية من قبل القبرصييـن اليساريـين. وبدا ماكاريوس وكأنه يسير على نفس خطا عبـد الناصر قبل عقدين من الزمن مـا عـدا أن ماكاريوس يقـوم بلعبته ما بين قوتين متفجرتيـن هما اليونان وتركيا كلاهمـا تخشى الاتحاد السوفييتـي، ولا تثق بماكاريوس، ولديهما سلسلة من الترتيبات حول قبرص، ومن هنا لهما الحق الشرعي في التدخل.

أثـار حصول ماكاريوس على أسلحة تشيكية الطغمـة العسكرية اليونانية المعاديـة للشيوعية. وفي 11 شبـاط، قدمت إنذاراً إلى ماكاريوس بوضع الأسلحـة التشيكية تحت تصرف الأمم المتحدة، وأن يعاد تشكيـل الحكومـة القبرصية على أساس أوسـع. والأكثر من ذلك أن مجموعة من ثلاثـة مطارنة يونانيين قبرصييـن، بتشجيع مـن الطغمة العسكرية ولا شك، أعلنت أن السلطة الروحيـة والسلطة الظرفية ينبغي أن تنفصـلا عـن بعضهما وأن ماكاريوس عليه أن يستقيل مـن الرئاسة ـ وهذا موقف غير مألوف بالنسبة للكنيسة الأرثوذكسية.

خشيت إدارة نيكسون، مهما كانت تحفظاتها على ماكاريوس، أن يؤدي انسحابه من المسرح إلى اغراء تركيا على فرض مقاطعات تركية والتي كانت تصر عليها في المباحثات ما بين الطائفتين، أو إذا اقتضى الأمر أن تحميها بقوات تركية. وهذا بالطبع سيكون موضع معارضة أية حكومة قبرصية جديدة، وموضع معارضة اليونان في النهاية أيضاً، مما يولد أزمة كبيرة بين الدول الحلفاء في «الناتو».

لذا تلقى السفير الأمريكي هنري ج. تاسكا توجيهاً بأن يحذر الطغمة العسكرية اليونانية من أي «تغيير بالقوة». أجابت الطغمة بأنها لن تتساهل أمام أي تدخل أجنبي، وهذا تصريح واضح «موجه أيضاً إلى أصدقائنا ـ أكثر مما هو موجه للآخرين».

وافق ماكاريوس من جانبه على وضع الأسلحة التشيكية تحت إشراف الأمم المتحدة، وأعاد «تشكيل» حكومته بطرد وزير خارجيته. ولم يكن أي من الإجراءين ذا قيمة. والمطارنة الثلاثة الثائرون تم استدعاؤهم إلى مجلس الكنيسة الأرثوذوكسية القبرصية وتم إبعادهم. أما اللاعب الأكبر فقد كسب ثانية المقامرة ونجا ثانية بقوة متزايدة.

ومنذ ذلك الحين وحتى أزمة 1974، كان الضغط محتدماً في قبرص، ويمكن أن يتفجر في كل وقت وإن بدا الجو هادئاً على السطح. وفي الأمم المتحدة ــ الجمعية العمومية في أيلول 1972 لم يكن كل من وزير الخارجية التركي أو اليوناني معنياً بدرجة كافية لإثارة موضوع قبرص في مباحثات مشتركة معي. وحصل الشيء نفسه أثناء اجتماع «الجمعية العمومية» عام 1973. وفي نيسان عام 1974، في جلسة خاصة للجمعية العمومية للأمم المتحدة كان وزير خارجية اليونان وتركيا يهددان بالقيام بعمل عسكري ضد بعضهما ولكن ليس حول قبرص. كانت المسألة استكشافية تتعلق بالنفط ـ وخاصة حقوقها الثابتة بالحفر من أجل اكتشاف النفط في بحر إيجه. على الرغم من هذه التوترات، عرض وزير الخارجية التركي استئناف المباحثات القبرصية بين المجموعتين العرقيتين التي كانت قد انهارت.

لم يبد ماكاريوس أي اهتمام عندما دعوته في نيقوسيا في 7 أيار 1974، حيث كان يستضيف اجتماعاً بيني وبين وزير الخارجية السوفييتي أندريه غروميكو في سياق مباحثات فك الاشتباك المكوكية بين إسرائيل وسوريا. اختارت قبرص وضعاً «محايداً» لم يكن متوقعاً بعدم اشتراك القوى العظمى بأية مشكلة في المستقبل القادم. وأعلن ماكاريوس الكيّسُ دوماً ترأس حفل غدا، حيث أبدى اهتمامه بالتفصيل أمام ونير شينتزيل ـ وهو رجل محبب لي. وبدا ماكاريوس، وهو يرحب بي، مرتاحاً. قال:

> مشكلة قبرص تحتاج إلى صبر. لا يوجد أية أحداث بين المجموعتين. يحدث أحياناً بعض الحوادث داخل جماعة الأتراك أو الجماعة اليونانية.. نأمل أن نستأنف المباحثات ما بين الطوائف.. في رأيي، إذا لم يتم التوصل إلى صيغة ما على المدى القصير، فإن الأمين العام للأمم المتحدة سيأتي إلى هنا قريباً، ولعله قد يستطيع أن يجمع الفريقين معاً.

لم يكن هناك شعور بوجود أزمة راهنة ولا إشارة من ماكاريوس على أنه سيتحدى الموقف اليوناني من الجزيرة.

بعد عدة أسابيع في 18حزيران 1974، قبل أقل من شهر على الانقلاب ضد ماركوس، أثناء الاجتماع الوزاري نصف السنوي «للناتو» في أتاوا، طلب الأمين العام جوزيف لونز من وزيري الخارجية اليوناني والتركي بوضع مصالح «الحلف» فوق النزاع حول اكتشاف النفط في بحر إيجه. ولم يأت ذكر قبرص. ورد الوزيران التركي واليوناني برغبتهما بالمحافظة على السلام. ولم يشر أحدهما إلى قبرص.

في يومي 8 و 9 تموز توقفت في لندن لمراجعة الوضع الدولي مع وزير الخارجية البريطاني جيميس كالاهان. ولم يعتبر أي واحد منا الوضع في قبرص ـ أو العلاقات التركية ـ اليونانية ـ ينذر بالخطر بحيث يطرح في جدول أعمالنا. وفي اليوم نفسه، قبل شهر من الانقلاب، أشار بيان استخبارات البيت الأبيض فقط إلى توتر يوناني ـ تركي في منطقة بحر ايجه، ولم يجر ذكر قبرص إلا هامشياً.

بعد الانقلاب في قبرص، ادعت بعض المصادر الصحفية وجود تحذيرات استخباراتية تجاهلتها إدارة تكره ماكاريوس، وتستحوذ عليها الجغرافيا السياسية وما فهمه المراقبون في الخارج أنه في حكومة بيروقراطية واسعة يستحيل اكتشاف بعض الوثائق أو التنبؤ بتحقيق ما، فهذه هي الطريقة التي تخفي فيها البيروقراطية بعض الأمور. ما يهم حقيقة هو الجوهر ومن لفت انتباهه التحذير.

كان السياق يؤكد على وجود لقاءات بين موظفين يونانيين وأتراك على مستوى رفيع يتناولون فيها قضايا ملحة. كنت مشغولاً برحلات مكوكية ما بين دمشق وإسرائيل استغرقت 34 يوماً وانتهت في 31 أيار 1974 باتفاقية فك الاشتباك السورية ــ الإسرائيلية. وفي الفترة من 10ــ 18، رافقت نيكسون إلى سورية ومصر والعربية السعودية وإسرائيل والأردن. ومن 27 حزيران وحتى 3 تموز رافقته إلى مؤتمر القمة الأخير في موسكو، بقيت هناك بضعة أيام للتشاور مع بروكسل وباريس وميونغ ولندن ومدريد ـ وهذا ما جعلني أعتقد بعدم وجود أزمة قريبة. وخلال الفترة بين هذه الرحلات استغرقت التحقيقات التي كانت تجري في الكونغرس جزءاً كبيراً من وقتي، ولا سيما الاتهام في موقف السيناتور هنري جاكسون بأن نيكسون عقد «صفقة سرية» خارج اتفاقية «سالت» مع السوفييت حول الحد من الأسلحة النووية[2]. أما نيكسون فقد كان مشغولاً، عدا رحلاته الاحتفالية الأخيرة، بووترغيت. وكان آخر شيء نحتاجه هو أن نشجع أزمة في شرقي المتوسط بين حليفين في «الناتو».

كانت الوثيقة التي أثيرت كثيراً في التحقيقات الأخيرة التي قام بها الكونغرس حول أزمة قبرص وثيقة تنبؤية كتبت في شهر أيار 1974 من قبل توماس د. بويات، رئيس مكتب قبرص في وزارة الخارجية. وقد تنبأ بها بشكل سليم بسياسة ديميتريوس ايوا نيديس، رئيس الشرطة العسكرية اليونانية الذي أطاح بالزمرة الحاكمة السابقة في أثينا. وقد أرسلت الوثيقة (الرسالة) إلي فيما كنت أقوم برحلاتي المكوكية

بيـن دمشق وإسرائيل. وأثناء غيابي عـن واشنطن صادق سكرتيري المعتمد علـى توصيات بويات بوجود مزاعـم حـول تحذير بويـات ضد استخدام القـوة أو أية أفعال أخـرى يمكن أن تطيـح بالوضع القائم في قبرص، وهي نسخة مطابقة لما قمنا به أثناء أزمة عام 1972.

رفضـ السفير تاسكا في البداية هذه التعليمات على أساس أنه نظراً لطبيعة ايوانيديس الهشة، فإنها سـوف تثير قائد الطغمة العسكريـة بدلاً من تهدئة الوضع. والأكثر من ذلـك أن إيوانيدس، رغم أنه رجل قـوي، فلم يكن لـه مركز رسمي، كان يعمـل من وراء ستار الرئيـس ووزير الخارجية اللذيـن كان يسيطر عليهما. وبضغط من واشنطن قام تاسكا بتسليم الرسالة إلى الرئيس اليوناني، ووزير الخارجية اليوناني، والمطـران سيرافيم، الذي كان تاسكا يعتقد أنه صديق حميـم ليوانيديس. وقد اتُهم تاسكا فيما بعد بأنه لـم يكـن يقوم بواجبه على خير ما يرام. لم يقدم أي دليل على ذلـك الحدث، وكان السفير نفسه قد سلم رسالة مماثلة قبل سنتين.

لم تكن أخطاء واشنطن هي ما قادت إلى فقدان السيطرة على الوضع في قبرص، بقدر ما كانت أفعال ماكاريوس الذي كان يجرب ثانية براعته على مستوى مرتفع ـ والتي أدت هذه المرة إلى نتائج كارثية. ففي الثانـي من تموز، أعلم الرئيس اليوناني أنه يقلص من تعداد «الحرس الوطني» يطالب بانسحاب الضباط اليونانيين الذين يشرفون عليه. هاتان الخطوتان من شأنهما أن يقلصا كثيراً، إن لم تزيلا، أي نفوذ لأثينا فـي قبرص وتُمكّنانِ ماكاريوس من الاعتماد أكثر على الحـزب الشيوعي المحلي في الداخل وعلى «حركة عدم الانحياز» في الخارج.

وكالعادة بالنسبة لماكاريوس، ما بدا أنه خطوة متهورة قد ارُتكب بحسابات باردة. كان ايوانيديس ذا مكانـة دوليـة أقل ـ وخاصة لدى تحالف الأطلسـي ـ من سلفه. وكان ماكاريوس متأكـداً تماماً أن الحلفاء الغربيين سوف يحبطون خطوة من جانب أثينا لتطبيق حقها كقوة ضامنة لتنفيذ اتفاقيات لندن ـ زيوريخ. ومن المؤكد أن حزب العمال البريطاني، الذي يكره الطغمة العسكرية بقوة، لن ينفذ حقوق معاهدته. أما بالنسبـة لتركيـا، فلم يكن مـن المتوقع أن تعارض تراجع النفـوذ اليوناني في الجزيرة، كمـا أنها ستكبح الجمـود السياسي الظاهر في أنقره، حيـث تشكلت حكومة إئتلافية مهتزة بين الحزب الاشتراكي برئاسة رئيس الوزراء الجديد بولنت إيجيفيت، والجناح اليميني، وهو حزب قومي ـ «حزب الانقاذ الوطني»، الذي يترأسـه أصولـي إسلامي هو نجم الدين أربكان. ايجيفيت الذي بدأ كشاعـر، وايوانيديس الذي يعتبر من سلـك الشرطـة، وماكاريوس الميكيافيلـي بثياب الكهنوت قد شكلوا مزيجاً متفجـراً لا يمكن أن تقوم بينه تسوية سليمة مباركة.

علـى مدى 14 سنة كانت عواطف الأحزاب تزان بمكيال نشاطاتها الكابحة لنشاطات أخرى، المعززة أحيانـاً بضغـوط خارجيـة. هذا التـوازن الدقيق لـم يتحقق في صيـف 1974 فموازين القـوى التاريخية:

الولايـات المتحـدة وبريطانيا، كانتا تحـت ضغط الأزمة من نوع الأزمات التي خضعتـا لها من قبل، والتي استطاعتـا احتواءهـا عدة مرات على مدى العقـد الماضي. وقد تعزز هذا التوقـع بالنقص الملحوظ بأي إحساس بالإلحاح من جانب ماكاريوس الذي كان في ذروة قوته. وفي وقت متأخر مثل الثاني عشر من تموز ــ قبل ثلاثة أيام من الانقـلاب أعلم المطران السفير الأمريكي المعين حديثاً، رودجر ديفيز ـ الذي عُين فيمـا بعـد في نيقوسيا ـ أنه يعتبر الوضع «دقيقاً» ولكن ليس «حاسمـاً». ولم يعط أية إشارة. وأفاد السفير «بأنه كان يسعى إلى تدخل أمريكي مع أثينا»... وظهر أن أحكام جميع الأحزاب كانت خاطئة.

الـردع يفترض حساباً وتعقلاً ـ وهمـا خاصتان غير مستقرتين حتى على مستـوى العلاقات الثنائية. ولكن قبرص تتضمن خصمين عرقيين، وثلاث قوى حامية أو ضامنة، والولايات لمتحدة. وجميعها أساءت الحكم على الوضع بدرجات متفاوتة. وقد اختار ماكاريوس خطأً عالياً عدة مرات.

لقـد أخطـأ إيوانيديس فهم التصوير التركـي للمشكلة القبرصية ـ وقبل كل شـيء أن تركيا لم تتخلّ عـن مطالبها بالاستقلال الذاتـي للمنطقة التركية ولم تنس أبداً أعمـال الإهانة والإذلال في عامي 1974 و1967. الولايات المتحدة المشغولة بووترغيت لم تكن تتصور أن الوضع يقترب من نقطة حاسمة. وهكذا جـاء الانفجار أخيراً، عندما لم يكن أحد يتوقعه، حتى ماكاريوس، في صباح يوم الخامس عشر من تموز، 1974.

انفجارات قبرص

فـي ساعات الصباح الباكرة صحوت على أخبار تفيـد أن «الحرس الوطني القبرصي» قام أثناء الليل بانقـلاب. ولمـا كانوا مـن الضباط اليونانييـن فقد قضوا على خطـة ماركوس في الوصـول إلى السلطة. وذكـرت أنباء داخليـة أن ماركوس قد قتل، وتم احتلال القصر الجمهـوري، وأن رجلاً غير معروف (لي) اسمـه نيكسـون سامبسون قد أُعلن رئيساً. أسرّ لي بويات أن سامبسون، وهو من رجال المدفعية، يقال إنه قتـل 12 رجلاً أثناء صدامـات عرقية مختلفة في نيقوسيا. ومع أن سامبسون أعلن أنه سيستمر في الإبقاء على الترتيبات الدستورية، فقد كان معروفاً بأنه من أنصار «enosis» ـ أي وحدة قبرص مع اليونان.

في الساعة العاشرة والربع صباحاً اجتمعت «مجموعة واشنطن للأعمال الخاصة» (WSAG) ـ وهي مجموعـة لإدارة الأزمات تتألف من نواب وزير الدفـاع، ومستشار الأمن القومي، ورئيس وكالة المخابرات المركزيـة (CIA)، ورئيس رئاسـة الأركان المشتركة في «غرفة الطوارئ» فـي قبو البيت الأبيض. وكانت «غرفـة الطوارئ» مع شهرتها غرفة صغيرة مجهزة بطاولة مؤتمرات متوسطة الحجم وصف من الكراسي علـى امتداد الجدران المزودة بخرائط تناسب أيـة مناسبة، تجاور «مركز اتصالات البيت الأبيض» الذي يسعه الوصول إلى أي مكان في العالم على الفور. ويستخدم المشاركون في اجتماعات غرفة الطوارئ هذه التسهيلات للتأكد من أية مسألة.

وكما يجري عادة في بداية أية أزمة كان الجو السائد مضطرباً. لم يكن يشك أحد في أن الانقلاب قد أعدته الطغمة العسكرية في أثينا ـ ولا سيما من قبل الجنرال ايوانيديس ـ وأنه بداية أزمة كبيرة.

تركيا لن تقبل أبداً بالوحدة (enosis). إذ كانت تعتبر سيطرة اليونانيين القبارصة غير مقبولة، طيلة عقد من الزمن، وكانت مستعدة للقيام بغزو للجزيرة للحيلولة دون ذلك، فإنها بالتأكيد لن تقبل بتحول قبرص إلى مقاطعة لليونان. وتهديد أنقرة بالتدخل في عامي 1964و 1967 سيزيد من تصميمها على إيجاد حجة لتصفية الحسابات.

كان الهم الأكبر «لمجموعة واشنطن للعمليات الخاصة» في يوم حدوث الانقلاب أن تحول دون وقوع حرب بين دولتين حليفتين في «الناتو» الذي من شأنه أن يدمر الجناح الشرقي للتحالف ويفتح الطريق أمام التسلل السوفييتي إلى البحر الأبيض المتوسط. ولهذا كانت خطوتنا الأولى أن نقلل من ذرائع تدخل خارجي بالمحافظة على الوضع الدستوري القائم قدر الإمكان. وأُرسلت رسائل إلى كل من أثينا وأنقره توضح أن الولايات المتحدة ترفض الوحدة (وحدة قبرص مع اليونان). وقلنا لتركيا بالإضافة إلى ذلك إننا سنعارض أي انتقاص من حقوق الأتراك، وأكدنا لأثينا أن الولايات المتحدة تعارض «أي تغيير في الوضع السياسي القائم في الجزيرة أو أوضاع القبارصة الأتراك» وفي الوقت نفسه رفضنا توسط الاتحاد السوفييتي بين دولتين حليفتين في «الناتو»:

> سوف يعتمد الدور السوفيتي على ألا يجعل هذه المشكلة مشكلة قبرصية داخلية.. لذا علينا أن نحافظ على إبقاء هذه المشكلة مسألة داخلية وإبعادها عن أن تصبح مشكلة دولية.
>
> حتى ونحن نعد البرقيات كنا نعرف أنها ليست إلا بداية تحركات يحتمل أن تتحول إلى دبلوماسية معقدة. فعلى مدى عدة عقود كان ماكاريوس ينسف الترتيبات الدستورية التي نحتكم اليها الآن؛ في حين كانت تركيا تحاول أن تفسخ اتفاقيات لندن. زيوريخ التي كانت بمثابة ضمان. في الفترة مابين 1964 و 1967 كان ماكاريوس في وضع يمكنه من اللجوء إلى حركة عدم الانحياز، وإلى الأمم المتحدة، في عام 1974 لم يلق من ادعى أنه رئيس حكومة قبرص، نيكسون سامبسون، أي اعتراف دولي به كرئيس من قبل أية دولة في العالم. ولم يكن للحكومة اليونانية تحت ظل ايوانيديس أي وضع دولي كما أنها كانت تقترب من التفكك في شؤونها الداخلية. كانت بريطانيا تعتبر نفسها أن لها مسؤولية خاصة في التعامل مع الأزمة. فقد كان لديها قاعدتان جويتان بالإضافة إلى اتفاقيات لندن ـ زيوريخ التي جرى التوقيع عليها تحت إشراف بريطانيا. وفي 16 تموز، بعد يوم على الانقلاب، ناشد رئيس وزراء تركيا بولينت ايكيفيت للتشاور حول اتفاقيات لندن ـ زيوريخ.

كان لدينـا أسباب كثيـرة للترحيب بمشاركة كالاهان. لم يكن هناك زعيم أجنبي أستمتعُ بالعمل معه مثله، وهو من القلة الذين أقدرهم بالغ التقدير. كان يجمع ما بين الشخصية المقربـة إلى القلب مع إحساس جيـد، واستطاع أن ينقذ الروابـط الأنغلو - أمريكية من البرودة التي سببها رئيس الوزراء إدوارد هيث (تيد) في محاولته إظهار التزامه بأوروبا، بالابتعـاد إلـى حد ما عن «العلاقـة الخاصة» مع الولايات المتحـدة (انظر الفصل 20). تردد كالاهان في دوره القيادي كان يعود إلى أن مشكلة قبرص كانت أول مشكلة دبلوماسية يواجههـا، وكانـت مشكلة قبرص بالذات من أعقد المشكلات التـي يمكن أن يواجهها أي دبلوماسـي. ثمة ثلاث قوى نافذة، مجموعتـان عرقيتان قبرصيتان، حكومة قبرصية غير معترف بها، وماكاريوس في المنفى، وقوتان عظيمتان تحاولان انتزاع نفوذ ما.

كان كالاهـان سياسيـاً نشيطـاً مخضرمـاً، اتهم فـي تقدمه نحو القمـة باستخدام الشـدة ـ ولو وجد مثـل هذا التوجه لما تحـول إلى السياسة الخارجيـة بالتأكيد ولا إلى العلاقات الأنغلو ـــ أمريكية[3]. وفي العلاقـات الشخصية كان أكثر مرونـة مني وطواعية. ولكنه كان يميل إلى إضفـاء الطابع الشخصي على قضايـا السياسيـة الخارجية إلى حد كبير ـ ولا سيما عندما يكون لديه قناعات أخلاقية في قضية ما، كما هو الحال بالنسبة للطغمة العسكرية اليونانية وفيما بعد العناد التركي. قد يغضب بسرعة بسبب العناد أو نفاق مفاوضيه ـ ربما لأنه كان يتوقع منهم أكثر مما أفعل.

وفيمـا يتعلق بقبرص ثار غضب كالاهـان بسبب الوضع المتغير: ففي الأسبوع الذي تلا الانقلاب، كان غضبـه موجهاً إلى الطغمـة العسكرية، ثم إلى ايكيفيت لامتناعه عن وقف النـار، وعندما تلكأت الحكومة اليونانيـة في المشاركة في الجولة الثانية من المفاوضـات (في 24 تموز، هدد كالاهان ببدء المفاوضات بدون اليونان)، وأخيراً إلى أنقره عندما استأنف الأتراك العمليات العسكرية.

كانت خبرة كالاهان الرئيسية مقتصرة على الشؤون الداخلية البريطانية التي يمكن للوسطاء تسويتها بطريقـة أو بأخـرى. أما الخلافات العرقية فهي مختلفـة تماماً، ولا يستطيع الوسيـط أن يطبق الأساليب ذاتها التي يستخدمها في فض المشاكل الداخلية بين الأحزاب. وخلافاً لكالاهان فإن خبرتي في الوساطة جـاءت مـن دبلوماسية الشرق الأوسـط، حيث كنت آخذ تصريحـات الفرقاء بجدية أقـل، وبالتالي كانت توقعاتي بالتقدم السريع أقل.

إذا وضعنـا اختلاف الأمزجة والخلفيات جانباً، كانت روح علاقتنـا تتجلى في تعليماتي للسفير وليام بافـم، مساعد وزير المنظمات الدولية، في 24 تمـوز 1974، عندما كان متوجهاً إلى المفاوضات اليونانية ـ التركية برئاسة كالاهان:

كـن متعاوناً ومساعداً لكالاهان، ولكن في المسائل التـي تتعلق بمصالحنا يجب أن نتخذ

قراراتنا بأنفسنا... أخبره بكل شـيء ليس لدينا استراتيجية سرية... لا يؤذينا أن نترك البريطانيين يلعبون دوراً في شرقي البحر الأبيض المتوسط. إذا تأكد لكالاهان النتيجة التي نحبذها فهذا أمر يسرني. الشيء المهم هو النتيجة المثمرة.

شارك كالاهان في المفاوضات ولكنه لم ينس أن يذكرني بمهارة بلاده. قال لي في بداية الأزمة القبصرية الفائقة: «أنتم تستعرضون العضلات» و«نحن نغسل الأدمغة». لا شك أن بعض مساعديه في وزارة الخارجية أخذوا هذا القول على محمل الجد وتمسكوا به حرفياً.

بقدر ما كانت الثقة متبادلة بيننا كانت معالجتنا الأولية للأزمة مختلفة. ربما بسبب اختلاف منظور كل واحد منا إليها. كان كالاهان السياسي المحترف يحسب في كل خطوة حساب النظرة السائدة في حزب العمال، والتي كانت في تلك الفترة معادية بقوة لحكم العسكريين في اليونان. خلال الأسبوع الأول، كانت تسيطر عليّ فكرة ألا نعطي حوافز لتركيا للقيام بالغزو، مما يعني انفصالاً كاملاً عن أثينا. كنت تواقاً إلى التخلص من سامبسون مثل كالاهان وإنهاء محاولة التوحيد. ولكن أساليبي كانت مشحونة بالرغبة في الإبقاء على اليونان ضمن الحلف وعدم إعطاء مبرر لتركيا للغزو.

في تلك الأثناء عاد ماكاريوس إلى الظهور، وفي 16 تموز شق طريقه جواً إلى قاعدة جوية بريطانية. وفيما كان ماكاريوس يطير إلى لندن عبر مالطة، كان كالاهان قد عرض ثلاثة اقتراحات: لقد رفض قبول سامبسون، وطالب بانسحاب الضباط اليونانيين الذين يخدمون في «الحرس الوطني القبرصي»، والاصرار على عودة ماكاريوس. وفي صباح 17 تموز ـ أي بعد يومين من الانقلاب ـ وضع كالاهان الوحدة الأوروبية خلف أولوياته:

سأقول لكم موقفنا وهو أساساً موقف أوروبي. جميع الدول التسع (في الوحدة الأوروبية) وحلف «الناتو». نحن نعتقد أن الحل المثالي هو عودة ماكاريوس. ونحن ننظر إذا ما كان يمكن تحقيق ذلك بوسائل دبلوماسية. وقد طلب ماكاريوس صلاحية دبلوماسية للاستمرار والحاجة إلى عدم الاعتراف بالنظام الجديد في قبرص عندما ننظر إلى ما بعد ستة أشهر. هل سيكون الوضع أشد أم أقل توتراً؟ تقريرنا أنه سيكون أشد. أي أنه سيكون أشد توتراً إذا لم نستطع إعادة ماركوس. ولكن السؤال هل نستطيع إعادته؟.

أعلن الأوروبيون الآن أهدافاً ليس لديهم لا الاستراتيجية ولا الوسائل لتحققها. كان الوضع أشبه بنكتة شاعت في الحرب العالمية الثانية حيث اقترح أحدهم التعامل مع الغواصات الألمانية بتسخين المحيطات وجعلها تغلي على سطحها. وعندما سئل كيف تحقق هذا، كان جوابه: «لقد أعطيتكم الفكرة فأما التنفيذ الفني فيقع على عاتقكم».

هكـذا كان موقـف كلاهان بدرجـة أو بأخـرى عندما سألتـه كيف نحمـل ماركوس على التراجع:

حسناً، نأمل أن تمارسـوا نفوذكم على الحكومة اليونانية بشأن ضباط «الحرس الوطني» الأتـراك، بموجـب اتفاقية الضمان، قد يسألوننا ماذا أنتـم فاعلون، وإذا كان العمل غير ممكن - أي واحدة من القوى الثلاثة ستقوم بالعمل. أعتقد أنه من الممكن أن نتحدث عن تصرف وحيد الجانب، وإذا حدث ذلك فلا بد من ضغط أمريكي على اليونان.

هـذا يعنـي تقليص أو تهديد غزو تركـي على الأقل كملجأ أخير لاستعـادة ماكاريوس إذا لـم ينجح الضغـط الأمريكي على اليونان. قال كالاهان إنـه يظن بوجود «فرصة خارجية» (بنسبـة 3 إلـى 1 أو ربما 5 إلى 1) بـأن الضغط الأمريكي سينجح فـي إعادة ماكاريوس وترحيل الضباط اليونانيين. ولكنه لم يوضح نوع الضغط الذي يفكر فيه.

كان تفكيـر الكونغرس يسير بالاتجـاه نفسه. ففي 19 تموز أبلغني رئيـس الأغلبية في مجلس الشيوخ، مايك مانسفيلد بأن هناك عواطف كثيرة «معادية لليونان وهي ملحوظة في مجلس الشيوخ على أية حال»، وإذا خرجت الأمور من يدنا فستكون العواقب وخيمة ومن ناحية ثانية عارض مانسفيلد استخدام القوة:

«إذا وصلنـا إلـى هذا فنحن في ورطـة عظيمة، ورطة أسـوأ من ورطة فيتنام كمـا أعتقد» كان موقف السيناتـور وليـام فولبرايت، رئيس «لجنة العلاقـات الخارجية» هو الموقف نفسه، مؤكـداً القول: أنا ضد استخدام القوة أيضاً ولكنني لا أريد تأييد اليونانيين.

فـي 17 تمـوز أخبرت نيكسـون أن الأوروبيين يتحدثون بلغة القوة ولكنهم يرويـدون منّا أن نحمل نحن العـبء. وفي حين كان الإعلام، والكونغرس، وحلفاؤنا يدعـون إلى نوع من الهجوم على الطغمة العسكرية اليونانيـة، كنت أحـاول أن أوجه السياسة الأمريكية نحو المحافظة على الجنـاح الشرقي «للناتو» والإبقاء علـى تركيـا واليونان حليفين. وهذا في رأيي يجعل الولايات المتحدة لا تنحاز إلى طرف واحد - وهي وجهة نظـر بقيت أحتفظ بها عندمـا انقلب المزاج العام بمقدار 180 درجـة، وأصبحت تركيا هي الهدف. لهذا اقترحت على نيكسون ترك الأمور الهامشية وأن يحاول الوساطة. ومن أجل هذه الغاية سأرسل نائب وزير الخارجيـة جوزيف سيسكو إلى لنـدن أولاً ثم إلى أثينا وأنقره لطرح أفكارنا. لا بد من طرح أربعة أهداف: إيقـاف الانقلاب الذي أوحت به أثينا فـي نيقوسيا، ومنع وحظر التدخل التركي المتزايد، أو التخفيف من إجراءاتـه، إذا لـم يكن ذلـك ممكناً، والوقوف مع بريطانيـا كواحدة من الدول الضامنـة، وإبعاد الاتحاد السوفييتي عن هذه المشكلة.

هذه الأهداف ينبغي أن تكون متوازنة، فزيادة التأكيد على أحدها قد يمزق النسيج الرقيق كله. الهدف مـن استراتيجيتنـا حماية خلفاء الانقلابيين مـن القوميين اليونانييـن، من اليمين أو اليسـار. ولهذا مع

استمـرار العمل على تحقيق الوحدة (enosis) والإطاحة بسامبسون، نقاوم ضغوط الكونغرس، والإعلام، وكثيـر من الأجهزة البيروقراطية لقطع المساعدة عـن اليونان، لأن المساعدة العسكرية لعضو حليف في الناتـو هـي تعبير عن اهتمام دائم «بالتحالـف الأطلسي» وليست وسيلة للمنـاورة. إن استبعاد اليونان عن بـؤرة الأزمة الدولية قد يسـرع التدخل التركي، فيما سيلقي الشعب اليونانـي اللوم علينا بسبب النزاع في قبرص. وفي النهاية فإن إدارة الأزمة هي تصحيح المثالية وليس وضع الحلول المثالية.

اتهـام المنتقدين لنا بأننا نحمي الدكتاتورية في أثينا كان خاطئاً تماماً. فمنذ البداية كنت مقتنعاً أن الانقـلاب سينتهـي إلى انهيار بالنسبة لمؤيديـه المحليين أو بالنسبة للحكم العسكـري في أثينا. ففي 18 تموز، أي بعد 72 ساعة من الانقلاب، أخبرت فريق إدارة الأزمات لدينا WSAG بمايلي:

أنـا لسـت قلقاً بشأن ايوانيديس. إذا سقط فحسناً... لا أعتقد أنه سيبقى لأمد طويل جداً. وفي 5 آب، في عملية انتقاد لأدائنا من كبار موظفي وزارة الخارجية، وصفت النهج الذي تبنيناه:

> نحـن اختصاصيون. ونحن هنا لنخدم المصلحة القومية.. لسنا هنا.. لنقود الصليبيين قبـل أن نعـرف مـذا يجري. ولسنـا معلقي صحف. فـي المراحل الأولى مـن الأزمة، من مسؤوليتنـا أن نقـرر توازن القوى ونقـوم التطور المحتمل، وأن نصـوغ قبل كل شيء هذه العوامل في السياسة التي تخدم المواطن والصالح العام[4].

وحددت المصلحة القومية كمايلي:

> ينبغـي أن يظل هـدف السياسـة الأمريكية أن تبقـى كل من اليونان وتركيـا عضوين في «الناتـو»، وأولئك الذيـن يدلون بملاحظات ساخـرة حول القواعـد العسكرية في شرقي المتوسط ينبغي أن يسألوا أنفسهم ماذا ستفعل الولايات المتحدة في الأزمة المنظورة في شرقـي المتوسـط، إذا لم تنضم إلينا اليونان وتركيا؟.. سينشب خلاف كبير لتقدير إذا مـا كانت تديرهماحكومتان تشعران بالخيانة من جانـب الولايات المتحدة وتقومان على قومية تميل إلى العدوانية، أم أنهما صديقتان للولايات المتحدة وتريدان التعاون معنا.

كانت المشكلة أعقد بكثير من شعار استعادة ماكاريوس، وهذا ما أصبح ظاهراً بعد أن قدم ايكيفيت مطالب تركيا في 17 تموز أولاً عبر سفيرنا في تركيا، وليام ماكومبر، ثم عبر كالاهان في لندن. لقد طرح ايكيفيـت أن تركيا ستغزو الجزيرة إذا لم يعـد ماكاريوس خلال 24 ساعة. إن فكرة استخدام تركيا للقوة العسكريـة لفرض إعادة عدوها الموروث في دولة موحـدة تبدو ساذجة تماماً. وقد هتف لي كالاهان حول مقترحات ايكيفيت:

> سأنقـل إليك مـا قاله إيكيفيت. إنه يريـد دولة مشتركة بين تركيا ونحـن، قائلاً: إننا لم نعترف بالنظام الجديد والنظام القديم يجب أن يعود. ولن نستطيع الانتظار حتى إعادة

ماكاريوس.. الوقت مهـــم «الناتو» سينشق.. لا نستطيع أن نتعاون مع الناتو أو اليونانيين علينا الآن نحن الأتراك، أن نوجه إنذاراً إلى اليونان والقــوى الموجودة على الجزيرة أن تكـون تحت إشراف الأمم المتحـــدة والأكثر فعالية لإشراف الأتراك، وعلى بريطانيا أن تسمـح للقـوات التركية أن تمر إلــى منطقتنا الحرة في الجزيرة. كمــا أن أي فعـل وحيد الجانـب هو أمر حتمي عاجلاً أم آجـلاً، لأن الأتراك يعتبرون أنفسهم رهائن، ويحتاجون إلــى حماية أنفسهم. حجم قوات الأمــم المتحدة مفتوح، وهم يرغبون بدايةً بالتعامل مع ماكاريوس.

وبالإضافـة إلــى ذلـك طالب ايكيفيـت بتوسيـع المناطـق التركية وتزويدهــا عن طريق البحر.

كل جملـة فـي ذلك الاقتراح كانـت لغماً أرضيـاً. فإيكيفيت يعـرف أنه لا يوجد حكومـة يونانية لا في الجزيـرة ولا فـي الوطن الأم يمكن أن تقبل هـذه المطالب بدون حرب. كما لا يمكـن لبريطانيا أن تسمح باستخـدام القـوات التركية لقواعدها في قبرص للغزو بدون تدمير علاقتهـا باليونان. أقل هذه المطالب التركيـة عناداً كانت ترفض منذ عقـد من الزمن. الأمل الوحيد المخالف للمنطـق هو الشروع بمباحثات فوريـة مـع ماكاريوس، الذي كان في طريقـه إلى نيويورك، وصعوبة البدء مـن النهاية. كما لم يكن هناك أي سبـب للاعتقـاد أن ماكاريوس الموجودَ في المنفى يمكـن أن يقبل هذه المطالـب والتي كان يرفضها منـذ عقود، وهو الأبرز بين الزعماء القبارصة. قلت لسيسكو: «مكاريوس لن يكون نجماً صناعياً تركياً في الوقت الذي رفض أن يكون نجماً صناعياً يونانياً».

بعـد أسبوع، باتت آراء إيكيفيـت الحقيقية تجاه ماكاريوس غير قابلة للنقاش. وفي 28 تموز، بعد شهر علـى الغزو التركي لقبرص ـ وقد أمسك الآن بجائزته ـ رفض بشدة عودةَ إلى مكاريوس مهما كان الثمن. فقد كان آخر شيء يفكر فيه ايكيفيت أن يعود إلى الوضع الراهن. والأكثر من ذلك أن ايكيفيت باتت لديه فرصة الآن أن يحقق بالقوة أو الضغط ما كانت تسعى إليه تركيا منذ عقد من الزمن: أقلية تركية متكاملة مـع منفذ على البحر. كان نيكسون على حافة تلقي الاتهام، والنظام القبرصي لم يكن موضع اعتراف من قبـل أيـة دولة، والطغمة العسكرية اليونانية منبوذة دولياً. ووجـد إيكيفيت باجتماع هذه الظروف إغراء لا يمكن مقاومته.

الغزو التركي

خـلال الساعـات الثماني والأربعيـن، في الوقت الـذي كان ايكيفيت يملـي اقتراحاته كنـا نسعى إلى استبعـاد عمليـات عسكرية من قبل أحد الجانبيـن. وفي 16 تموز طُلب من السفيـر الأمريكي في أثينا أن يقابل إيوانيديس، الذي رفض استقبال تاسكا بحجة أنه لا يحتل أي منصب رسمي، لذا عليه أن يقابل رئيس

الوزراء. واستناداً إلى ذلك بعث بمبعوث موثوق ليقابل رئيس المجموعة الانقلابية الذي حذر ايوانيديس أن الولايات المتحدة تؤيد جمهورية قبرص والترتيبات الدستورية القائمة ـ بعبارة أخرى إننا نعارض الوحدة. وينبغي ذكر رد فعل ايوانيديس كما وصفه تاسكا في برقيته بالكامل:

بعد أن بلّغ المبعوث الرسالة استشاط الجنرال غضباً، وراح يضرب المائدة بيده، وكسر زجاجة فارغة، وتمتم بألفاظ قبيحة. وتابع يقول إن كيسنجر أعلن ذات يوم في بيانات علنية بعدم التدخل بشؤون اليونان الداخلية، وبعد أسابيع قليلة قالت الحكومة الأمريكية إنها «متمسكة بالمبادئ المذكورة أعلاه..» وهدَّدَ بالتدخل. مهما حدث في قبرص فسوف ألام أنا (إيوانيديس). إذا سُحبت القوات فسيلومني السياسيون السابقون لأنني حولت الجزيرة إلى الشيوعيين. لا بد أن تتأكد الحكومة الأمريكية أنه في يوم 15 تموز 1974تم إنقاذ قبرص من الوقوع في أيدي الشيوعيين.

بعد أن هدأت ثورة غضبه تقبل ايوانيديس وجهة نظرنا. وأكد على التزام اليونان «بعدم التدخل بدولة قبرص المستقلة ذات السيادة» ـ بمعنى آخر، لقد تخلى عن مسألة «الوحدة».

نقلنا هذه التأكيدات مباشرة إلى الحكومة التركية. ولما كان إيكيفيت يعتبر إيوانيديس أقل مصداقية مما نعتقد، فقد أكدنا على أننا ننوي أن نجعل ايوانيديس يتمسك بكلمته. وفي 17 تموز، وعد رئيس الوزراء اليوناني السفير تاسكا بألا يزيد عدد القوات اليونانية في قبرص، أو يستخدم المتغيرات المؤقتة حتى النهاية. نقلنا هذا التأكيد إلى أنقره كذلك. ومن أجل أن نُبقي موسكو خارج هذه الدبلوماسية الناشئة سعينا إلى تهدئة مخاوفها من أن «الوحدة» تتضمن أن يضم حلف الناتو قبرص. ومن أجل هذا أكدنا لبريجينيف بأننا سنقوم بكل ما في وسعنا من أجل إعادة بناء الحكم الدستوري. وخلافاً لمقولة إن الولايات المتحدة شجعت الغزو التركي ــ أو تساهلت تجاهه ـ كانت استراتيجيتنا خلال الأسبوع الأول معنية باستبعاد الذرائع التركية للقيام بعمل عسكري.

وفي اليوم نفسه أرسلت جوسيسكو إلى لندن للعمل مع كالاهان وايكيفيت، وأن ينتقل من هناك إلى أثينا وأنقره. وكان سيسكو أحد نجوم وزارة الخارجية ووصل إلى هذا المركز من خلال عمله داخل الوزارة وفقاً للنظام المعتا د. وكان يعتقد أن المهن في الولايات المتحدة مفتوحة للموهوبين من خلفيات مختلفة، وهو نفسه مثال حي على ذلك، إذا ما توفر لهم الذكاء والتصميم والأخلاق. وكان موهوباً في اختيار الأشخاص الملائمين الذين يحلون ما يبدو أن لا حل له، ويعطي إجابات عديدة أكثر مما يطرح أسئلة. وقد أصبح هذا الرجل النشيط سيسكو مدير حل الأزمات بامتياز، وبخاصة بعد أن رُقّي إلى مرتبة أعلى ثالث درجة في سلم وزارة الخارجية.

طُلب من سيسكو أن يعدّ لنا «حلاً دستورياً» ـ ونريده دستورياً كي نولّي غلافكوس كليريديس، رئيس البرلمان القبرصي في عهد ماكاريوس، ليكون رئيساً لفترة 6 أشهر. بعد ذلك تجري انتخابات يكون من

حق ماكاريوس المشاركة فيها. في غضون تلك الفترة يجري التفاوض على ترتيب طائفي جديد بين السكان اليونانيين والأتراك. وكان كلاريديس معروفاً بأنه أكثر اعتدالاً من ماكاريوس، ولذلك فقد كان الحل المؤقت لإنقاذ ماء الوجه لكل من أثينا وأنقره. والفكرة وراء هذا الاقتراح أن التأكيد على الدستور ينهي آفاق الوحدة، كما أن اختيار كلاريديس سيجنب أثينا الحاجة إلى التعامل مع ماكاريوس حول المباحثات الطائفية.

عندما التقيت مع ماكاريوس في 22 تموز، بعد أسبوع على الانقلاب، بدا موافقاً على تلك المعالجة (وكلمة بدا هي أقصى ما يمكن أن يستخلصه المرء من المطران). لم يطالب باستعادة منصبه، لا بل إنه امتدح ما استنتجناه باستقلالية: أي حكومة تُعين في نيقوسيا ستُعامل بوصفها الراعية، وبالتالي ستحافظ على الاستمرارية الدستورية.

أمضى سيسكو يوم 18 تموز في لندن، يتشاور مع كالاهان الذي وافق على أن يذهب سيسكو إلى أثينا وأنقره لاستكشاف إمكانية تنصيب كلاريديس. وفي 19 تموز التقى سيسكو في أثينا مع الوزراء اليونانيين، الذين أبدوا استعداداً لتقديم تنازلات مما عكس السلوك اليائس الذي كان يناور به العسكريون، فلأول مرة يذكر العسكريون أنهم قد يقبلون بمنطقة تركية في قبرص، وتغيير جميع الضباط الذين كانوا موجودين في قبرص عند وقوع الانقلاب. ورفضوا طلب إيكيفيت بالوصول إلى منفذ بحري للمنطقة التركية، والعودة الفورية لمكاريوس وتعيين ضباط يونانيين في قبرص تحت إمرة الأمم المتحدة.

كانت أنقره محطة سيسكو التالية، حيث قابل رئيس الوزراء إيكيفيت. كنت أعرف إيكيفيت منذ عام 1957عندما كان طالباً في «سيمينار هارفرد الدولي». كان يتطلع إلى أن يكون كاتباً، ولم يكن قد دخل عالم السياسة تماماً بعد. كانت أفكار إيكيفيت السياسية آنذاك يسارية تقليدية كمعظم المفكرين الأوروبيين حيث تقودهم الدوائر الأدبية الفرنسية. ولم تتغير هذه الأفكار بعد أن أصبحت السياسة مهنته. ولما كان الشعر هوايته الأولى، فقد كنت آمل أنه سيكون أكثر مرونة وحساسية في الحوار من الزعماء الأتراك التقليديين الذين يميلون إلى إشاعة أجواء الحرب.

لم يكن لقناعتي بأهمية تركيا للمصالح القومية الأمريكية شأنٌ بعلاقتي الشخصية به التي نشأت بيننا قبل عقد من الزمن. كنت مستعداً لاستخدام تلك العلاقة ولكن ليس الاعتماد عليها أو إخضاع السياسة الأمريكية لها. وأنا على يقين أن إيكيفيت كان يؤمن بالمبادئ ذاتها في علاقاته معي.

يتضح هذا من التحذير الشديد الذي طلبت من سيسكو أن يسلمه عند وصوله إلى أنقره. إذ لمّا كنت تلقيت تقارير عن استعدادات عسكرية تركية لغزو قبرص، فقد وجهت تعليمات إلى وزارة الخارجية من سان كليمنت حيث كنت مع الرئيس من 18 ـ 20 تموز:

> أريد برقية إلى سيسكو بحيث حالما يصل أن يخبر إيكيفيت أننا مهتمون كثيراً بالتقارير التي لم تتأكد عن تحركات عسكرية تركية. إنه مكلف بأن يبين للحكومة التركية بأن

الولايـات المتحدة تنظر بخطورة إلى التحـركات العسكرية التركية قبل أن تستنفد جميع السبل الدبلوماسية. هذه النقطة الأولى. وعليه أن يقوم بها على الفور لأننا ما زلنا نتشاور فـي الأمر ولـم نعلن صراحة أننـا نعارض التدخـل العسكري. وثانياً، عليـه أن يقول لهم إننـا نفعل ذلك مـن أجل مصالح تركيـا، وإن التدخل التركي لن يكـون التحرك الأخير، بـل سيكون مقدمة لسلسلة من التحركات... أية حكومة ستظهر في قبرص في نهاية هذه العمليـة لن تخـدم المصالح التركية بصورة أفضـل. إذ من أجل أن تحقـق تركيا توازناً مقابـلاً... فإن الحكومة ستتطلع حتماً إلى تأييد داخلي وخارجي من الشيوعية. ينبغي أن تؤكـد لايكيفيـت أننا نعارض كلياً الوحدة بصورة مباشرة أو مـداورة... وأخيراً ينبغي أن تخبـر إيكيفيت أنني كصديق معجـب به، ينبغي أن أوضح قناعاتي وهـي أنه إذا لجأ إلى التدخـل العسكـري يكون قد بدأ بعملية لن يكون لها آثـار معاكسة على تركيا فحسب على المدى الطويل، بل ستكون خطرة للغاية بالنسبة إلى الغرب ككل.

بـدا إيكيفيـت غير مكترث بالتحذيـرات الأمريكية والتنـازلات اليونانية معاً. فمنـذ بداية الأزمة كان مصممـاً على تجنـب مفاوضات مطولة يمكن أن تجمد الوضع الدستوري القائم وتحرم تركيا من الفرصة الوحيـدة، بسبب التهـور اليوناني، والوضع الدولـي، وأزمة أمريكا الداخلية، بحسـب رأيه. وفي صباح 20 تموز، بعد 72 ساعة من تقديم ايكيفيت اقتراحاته للندن، بدأت القوات التركية تتمركز في قبرص. في 21 تموز ألححْتُ على ايكيفيت بوقف إطلاق النار، وقال لي:

لقـد انتهجنـا السياسة التي نصحتنـا بها أمريكا في قبرص منـذ عشـر سنوات وحيث انتهينا، لدينا أفكار مختلفة حولها.. ولكـن حتى الآن لم نُعط الفرصة.. حاولنا طيلة الوقت أن نفعل شيئاً بشأن هذا الموضوع. الآن اتخذنا المبادرة.. ونريد أن نستغلها جيداً.

كانـت المرحلة الأخيرة من مراحـل رئاسة نيكسون. في 19 تموز، في لحظـة دقيقة من الأزمة، كانت الاتصـالات بين البيت الأبيض مع سانت كليمنت معطلة بسبب وثائق نيكسون المقدمة إلى المحكمة العليا التي تطلب الاستثناء الخاص لنظامه.

رغـم كل هذه الضغـوط، تابع نيكسون نشاطه اليومي المعتاد بدون أيـة إعاقة. ولا يستطيع أي مراقب خارجـي أن يلاحـظ أي تغيير في إصـراره على مراجعة الخيـارات المختلفة بدقة. القلائـل الذين كانوا يتابعونه يومياً كانوا يعرفون أكثر. فنظرته البعيدة الجامدة كانت تخبرنا بأن نيكسون مشرف على الضياع. كان يتابع القضايا رغم أنه كان يودع حياة العمل.

مـا إن تبدأ عمليات عسكرية، فإن هدفنا الأساسي هو أن نحول أولاً دون انفجار حرب بين حليفين في الناتـو، بعد الوصول إلى وقف إطلاق النار في قبرص، وأخيراً بدء المفاوضات بين الفرقاء. وكان سيسكو قد أُبلغ أن يدعو ايكيفيت برسالة خاصة أرسلتها إليه:

أنا (كسينجر) لدي وجهة نظر تفيد أن التدخل التركي في قبرص والذي سيكون له نتائج بالغة الخطورة، وأهمها انعكاس الوضع على أمن العالم الحر. نشعر بخيبة أمل شديدة لأن الحكومة التركية لم تستمع إلى رجائنا بممارسة ضبط النفس.

أما وأن الخطوة قد اتخذت الآن فلا من ايجاد وسيلة سريعة لإعادة السلام والاستقرار إلى المنطقة.

إذا كان من السهل البدء بنزاع، فمن الصعب ايقافه. حصافة رجل الدولة على أعلى مستوى باتت مطلوبة بالنسبة إلى كافة الأطراف المعنية.

الولايات المتحدة من جانبها مستعدة لدعم حل دستوري ومستوى من القوات مثل الذي كان موجوداً قبل الانقلاب.

الطريقة الوحيدة في رأينا، أن نعيد تشكيل حكومة دستورية تعتبر خليفة شرعية لكلاريديس. ولا يوجد حل آخر يكون ممكناً أو مقبولاً لليونانيين..

لقد أشار رئيس الوزراء ايكيفيت أنه ليس لديه اهتمام خاص حول من سيكون رئيس الدولة، ولهذا فإن سيسكو في طريقه إلى أثينا كي يقترح على اليونانيين حل كلاريديس. نفترض، في ضوء ما قاله رئيس الوزراء لسيسكو في اجتماعهما الأخير (في لندن) فإن الحكومة التركية ستقبل..

نقترح على بريطانيا بالحاح أن تدعو إلى مفاوضات فورية مع القوى المضمونة في لندن للوصول إلى حل دستوري يفتح الطريق لإرساء الاستقرار في قبرص والمنطقة.

لقد طلبنا من الحكومة التركية بالحاح أن تأخذ بدقة بالغة المقترحات التي نتقدم بها لأننا مقتنعون أننا إذا فعلنا خلاف ذلك سيكون الموقف حالة دفاع عن النفس بالنسبة لمصالح تركيا الخاصة.

ومن أجل أن نعلم أن وجهات نظرنا وصلت إلى إيكيفيت طلبت من نائب وزير الخارجية روبرت أنجروسيل أن يُسلم الرسالة ذاتها إلى السفير التركي في واشنطن. وطُلب من سيسكو أن يعود إلى اليونان ويطرحَ الحل نفسه هناك، حيث كانت الجماعة الانقلابية تفقد هيبتها بسبب إخفاقها الظاهر بشكل متزايد في قبرص.

النزاهة في الدفاع عن مصلحة أمريكا القومية في المحافظة على الجناح الشرقي لحلف «الناتو» كانت مرفوضة بصورة حتمية من قبل الخصمين العرقيين. وبسبب اختلافهما العرقي لم تكن أنقره ولا أثينا مستعدة للتفاوض. أثينا هددت بالانسحاب من المخطط

العسكري لحلف «الناتو» وحشد احتياطاتها. واستمرت تركيا في تعزيز قواتها في قبرص. ومن أجل أن نوضح لكلا الطرفين أنه رغم التزامانا بروابط «الناتو» التي لها حدود، فقد أكدت في مؤتمر صحفي في 20 تموز أن حرباً بين حليفين في الحلف سوف تؤدي إلى قطع المساعدات الأمريكية:

لقد أوضحنا، وأود أن أكرر هنا، أن حرباً بين تركيا واليونان لن تتم بأسلحة أمريكية، إنها يمكن أن تجري بالأسلحة التي يمتلكونها، ولكنها لن تتم من خلال خط واضح للإمداد.[5]

في داخل حزام المناورة في واشنطن كان هناك تباطؤ في التقاط الوقائع التي تبرز في شرقي البحر الأبيض المتوسط. ورغم أن الطغمة الانقلابية في أثينا كانت تترنح، وانقلاب نيقوسيا ينهار، فإن الكونغرس ومعظم سائل الإعلام والدوائر البيروقراطية استمرت في الضغط على أثينا. وفي 21 تموز نشرت صحيفة الواشنطن بوست بالخط العريض أن وزارة الدفاع فضلت قطع جميع المساعدات العسكرية عن أثينا. وكانت الصحيفة المذكورة على اطلاع جيد، ولا سيما على اجتماع جماعة «الأعمال الخاصة في واشنطن»، حيث حضّ وزير الدفاع جيمس شليسنجر على سحب الأسلحة النووية من اليونان.

رفضت ذلك، فمع انتشار القوات الأمريكية عبر قبرص مثل هذا الإجراء من جانب السلطات اليونانية سوف يفتح شهية تركيا. ومن أجل منع الحرب بين اليونان وتركيا، أنا لن أُقدم على المساعدات لأنني أريد أن أدعم مبدأ تكامل أراضي الجناح الشرقي الذي يعتبر حيوياً ومكملاً للمصلحة الأمريكية. وما إن يتم الإعلان عن قطع المساعدة رسمياً سيكون من الصعب جداً التراجع عن ذلك. وافقت على إجراء احتياطي بأن تُستبعد الرؤوس الحربية عن منصات الإطلاق وتوضع في مخزن آمن. وما حدث أن الضغوط من أجل قطع المساعدات عن اليونان قد زالت بعد أن تمت الإطاحة بالطغمة الانقلابية اليونانية.

أمضيت أنا وكالاهان معظم يوم الأحد، 21 تموز، على الهاتف لتلقي مكالمات من عواصمنا المعنية، محاولين إقناع الفرقاء الذين كان طموحهم الرئيسي تدمير بعضهم بعضاً بسبب الكراهية[6]. اليونان، الطرف الأضعف، كانت أكثر استعداداً، وأبدت استعدادها للقبول بالأمر الواقع. أما إيكيفيت الذي كان راغباً، فقد حصل على ما يريد بدون حرب، وهو ما بدا تغييراً جوهرياً في الوضع القائم. ولكنه تعمد المماطلة في تحقيق ذلك بذكاء.

واستغـرق الأمر بضع ساعات للحصـول على موافقة إيكيفيت لمناقشـة أن وقف إطلاق النـار لن يكون ساري المفعول لأن اليونانيين الخبثاء سوف يضعون اللوم على أي اختراق لوقـف إطـلاق النار على تركيـا، بتحريك سفن يتحـدث ركابها التركيـة. قلت لايكيفيت بصراحـة إنـه لن يلوم أحد تركيا إذا كان بحارتها قد تعلم التركية في قيادة حلف الناتو، ولـن يلوم أحد تركيا إذا أغرقـت سفينة يتحدث ركابها التركية. النص الأصلي للمحادثة يعطينا توضيحاً ذا مغزى:

إيكيفيت: لدينا مشكلة. نشك في مصداقية اليونان. كلمة الشرف عند ايوا نيديس نكتة. وقد عرفنا الآن مـا هـي النكتـة وراء كلماته. قال إنـه سيطلق النار على أيـة سفن يونانيـة فسفنه تحمل الأعلام التركية!

كيسنجر: حسناً، لا أحد يلومك إذا ما أغرقت سفنك.

إيكيفيت: كلا يا دكتور كيسنجر، إنها ليست سفننا. إنها سفن يونانية تحمل العلم التركي.

كيسنجـر: نعم يا سيادة رئيس الوزراء، ولكنك تستطيـع أن تغرقها إذا لم تكن سفنكم ولكنها تحمل الأعلام التركية.

إيكيفيـت: إنهم يلجأون إلى حيلتين. نحن حلفاء في الناتو، والطيارون الأتراك يعرفون رموزنا. إنهم يتكلمـون التركية. وهم يخاطبون طيارينا بالتركية مستخدميـن كلماتنا المشفرة. لا يمكن أن نعتمد بعد ذلك على كلام اليونانيين.

كيسنجر: ما الذي تريد أن تعرفه على وجه الدقة؟ أعرف أنك رجل ذكي. أعرف ذلك منذ أيام هارفرد. مع كل احترامي لا يمكن أن أقبل هذا. إنه يمكن أن يسري لمدة ستة أسابيع على هذا الأساس.

إيكيفيـت: يقولـون إنهم يريدون هدنة. بات من الواضح أنهم يريدون استغلال وقف إطلاق النار من أجل القوات على الجزيرة. على اليونانيين أن يتوقفوا عن هذه الأساليب.

كيسنجر: أية أساليب ينبغي أن يوقفوها.

إيكيفيـت: يقولون إنهـم مستعدون لوقف إطلاق النـار. ولقد أظهروا لنا الحيل التـي سيستخدمونها لخرق وقف النار.

كيسنجر: هل تريد أن تقول لي إنك لا تواقف على وقف إطلاق النار؟.

إيكيفيت: سنقبل بوقف إطلاق النار.

كيسنجر : اليوم؟

إبكيفيت: نحن نناقش هذه المسألة الآن.

في النهاية، للبرهنة على مصداقية كلمة أمريكا، أغرق سلاح الجو التركي مدمرة تركية بعد ظهر ذلك اليوم نتيجة لخطأ من الطيار.

قمنا مع حلفائنا بكل جهد ممكن لإبعاد السوفييت إلى الخطوط الخلفية. وأكدت رسالة من نيكسون إلى ليونيد بريجينيف أننا «نرغب في التعاون معكم في إحلال السلام والترتيبات الدستورية السابقة في قبرص». وأكدت الرسالة أن أمريكا لم تساند التدخل التركي، أو أي تدخل آخر:

الولايات المتحدة لا تؤيد ولن تؤيد التدخل الخارجي في شؤون قبرص. إنها تعارض مثل هذا التدخل من أية جهة كانت.

بعد ظهر 21 تموز قررت أنا وكالاهان يؤازرنا وزير الخارجية الفرنسية جان سوفانبيه الإصرار على وقف إطلاق النار بما يشبه صيغة إنذار: إذا لم يتم الاتفاق على وقف إطلاق النار في غضون اثنتي عشرة ساعة سوف تزيل الولايات المتحدة جميع أسلحتها النووية من كلا جانبي الحدود التركية – اليونانية في تريس. وطالب الحلفاء الثلاثة، أكثر من ذلك بإيقاف إطلاق النار فوراً في اجتماع يعقد برعاية بريطانيا مع وزيري الخارجية اليونانية والتركية.

قبل إيكيفيت عازفاً الاقتراح قبل ساعة من الموعد النهائي. كما وافقت أثينا على مضض بعد ساعتين. كانت العداوة شديدة جداً بين الجانبين بحيث أن أي طرف لم يكن مستعداً لوقف إطلاق النار قبل الآخر أو يقوم بذلك من تلقاء نفسه. وعندما تم وقف إطلاق النار أخيراً في 22 تموز، لم يعتبره أي من الطرفين التزاماً تجاه الآخر بل موافقة فردية على الاقتراح الأمريكي.

كان وقف إطلاق النار آخر عمل قام به الانقلابيون. فبعد 24 ساعة سلموا السلطة إلى حكومة ديمقراطية. الثورات نادراً ما تكون درامية في الحياة الواقعية كما في حساباتهم التاريخية. علمت بعودة الديمقراطية إلى اليونان بهاتف تلقيته من السفير تاسكا في الساعة الخامسة من عصر يوم 22 تموز أو منتصف الليل في أثينا:

تاسكا: أنا في مكتب غيزيكيس (رئيس اليونان) جميع رؤساء الوحدات العسكرية موجودون هنا، وكذلك القيادة الجديدة لليونان كانيلوبولوس. إنهم يتطلعون إلى الحديث معك. حدثتهم عن الجهود التي قمنا بها والآمال الكبيرة التي نعلقها على السلام في المنطقة كانوا مهتمين كثيراً بما يجري في قبرص، وقد خلقت لهم مشكلة مستحيلة سياسياً كأول حكومة ديمقراطية في اليونان منذ 1967. يريدون أن تتحدث إليهم وإلى كانيلوبولوس بحيث يشرحون هذه المشكلة.

كانيلوبولوس: السيد ك. يتحدث.

كيسنجر: يسرني سماع صوتك.

كانيلوبولوس: جميعنا قلقون جداً ونشعر بورطة. يصعب علينا القبول باستمرار مثل هذه النشاطات في قبرص. الوضع أصبح دقيقاً للغاية.

كيسنجر: سمعتك جيداً.

كانيلوبولوس: لا بد أن أخبرك أنني مسرور جداً أن أتحدث إليك لأول مرة في حياتي.

كيسنجر: أود أن أقول لك إن صداقتنا مع اليونان راسخة، ويمكنك الاعتماد عليها وعلى تحالفنا. سأبقى على اتصال مستمر مع رئيس الوزراء التركي وأحضه على إظهار منتهى التقيد.

في صباح اليوم التالي عاد كونستانتين كارا مانيليس، آخر رئيس وزراء منتخب يوناني من منفاه في باريس، وأسدل الستار على الفصل الأول من أزمة قبرص.

التدخل التركي الثاني

كان رد فعلنا الأولي شعوراً بالنشوة لأننا تجاوزنا أزمة كان يمكن أن تمزق الحلف. جرت جولتان من المفاوضات لتقدير الموقف، تحت الرعاية البريطانية، الأولى ـ لتثبيت وقف إطلاق النار ـ بعد يومين في 24 تموز، والثانية لتحقيق التسوية السياسية، تبدأ بعد أسبوعين، في 8 آب. مسيرة سلام شبيهة بتلك التي بدأت في الشرق الأوسط بدا أنها في طريقها إلى أن تأخذ مجراها. ورغم أننا كنا نتوقع الكثير من الأخذ والرد، فإننا لم نكن نتوقع انفجار دورة أخرى من القتال.

لما كنا نفتقر لأية تجربة سابقة بالنزاع العرقي، فقد أخفقنا في فهم أن لدينا نفوذاً أقل على الفرقاء في قبرص مما لدينا في الشرق الأوسط. فالفرقاء في الشرق الأوسط رغم أنها كانت تستغل التنافس بين القوى العظمى، كانت في الوقت نفسه مقيدة بها. أما في قبرص فكان الخصمان لا يقبلان بمثل هذه القيود. والحق أن الحكومة الديمقراطية الجديدة في أثينا رفعت الشروط اليونانية. فكارامانيليس ورفاقه لم يجدوا أي مبرر لدفع ثمن انتشال اليونان من أزمات سببها حماقة من سبقوهم. ولما كانوا غير مستعدين لأن يُعرِّضوا أنفسهم لتهمة التخلي عن مصلحة اليونان القومية، فقد أصروا على الموقف القومي الأساسي للانقلابيين. ورفضوا أي حل اتحادي لقبرص وتوقعوا من «الناتو» ولا سيما الولايات المتحدة أن تقتلع تركيا من الجزيرة باسم الديمقراطية اليونانية. أما تركيا من جانبها فقد أصرت على تقسيم الجزيرة إلى وحدتين سياسيتين يونانية وتركية، من جانبه ظهر ماكاريوس كحام للقومية القبرصية ويبدو أنه كما قال تاليران في البوربون بعد الثورة الفرنسية، إنه لم يتعلم ولم ينس أي شيء. هتف لي ماكاريوس في مكتبي في وزارة الخارجية في 22 تموز حيث تم توقيع وقف إطلاق النار، ثم هتف ثانية يوم 29 تموز.

بقبولـه لغلافكوس كليريديس رئيساً للبـلاد، أوضح أنه سيعود إلى المطالبة بالرئاسة حالما تهدأ قبرص. كان يلح في طلب الوساطة الأمريكية ولكنه لم يكن مستعداً لأي تنازل. وبطبيعته الساردونية الساحرة رفض ماكاريوس أية ترتيبات منطقية، فضلاً عن الفدرالية، وكذلك رفض العودة إلى اتفاقيات لندن ـ زيوريخ لعام 1960. ما اقترحه دولة اتحادية تحت اشراف قبرص اليونانية تتحقق بضغط عسكري أمريكي على تركيا في أعقاب هزيمة يونانية وبدون أي تنازل يوناني.

شعر ماكاريوس أن الريح في ظهره بسبب الهجوم الداخلي على إسقاط إدارة نيكسون قد وصل الى180 درجة في حين أن الديمقراطية كان يعاد بناؤها في أثينا. لفترة أسابيع كنا ننتقد بقسوة لإخفاقنا في الضغط على اليونان لصالح تركيا. فجأة وفي غضون بضعة أيام، أصبحنا ننتقد لإخفاقنا في الضغط على تركيا من أجل مساعدة الديمقراطية اليونانية لقد أصبح الجناح الشرقي للناتو حقيبة ممتلئة بشؤون السياسة الداخلية الأمريكية.

ظلت وجهة نظري كما كانت، عندما كنت أمارس ضغطاً متزايداً على اليونان. قلت في اجتماع للموظفين:

> أولئك الذين يريدوننا أن نهين اليونان اليوم هم أنفسهم يريدون أن نتحرك ضد تركيا... قد نضطر إلى أن نضغط عليهم (على تركيا)، ولكن حين نعارضهم نفعل ذلك من أجل قضية جوهرية وتأثير مهم وليس من أجل افتتاحية في صحيفة نيويورك تايمز. وحتى نفعل ذلك، سنكون في وضع نجعلهم يعرفون أننا استخدمنا كل فرصة تكتيكية لجعل حياتهم أكثر صعوبة.

رفضت سياسة عزل اليونان وإذلالها ـ مهما كانت تحفظاتي على حكومتها ـ لأنني كنت أعتبرها عموداً أساسياً في استراتيجية حلفنا (الناتو). ومن وجهة نظر جيوسياسية فإن تركيا أكثر أهمية، فمجاورتها للشرق الأوسط، وآسيا الوسطى، والاتحاد السوفييتي، وأوروبا، تجعلها لا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة للسياسة الأمريكية في جميع هذه المناطق. لقد كانت تركيا حليفاً قوياً ووفياً طيلة فترة الحرب الباردة. كما أن القوات التركية قاتلت ببسالة إلى جانبنا في الحرب الكورية. وهناك 26 محطة إلكترونية ترصد الصواريخ والنشاطات الفضائية السوفييتية من الأراضي التركية. جميع هذه الأمور تجعلني عازفاً عن فرض عقوبات.

إن أحكام «قانون المساعدة العسكرية» تحظر استخدام الأسلحة الأمريكية لأغراض غير أغراض الدفاع القومي عن النفس، والغرض من ذلك الحيلولة دون استخدام المساعدة العسكرية الأمريكية في أغراض القمع الداخلي أو الحرب الأهلية. ولكن بالنسبة لتركيا، فإن قبرص تعني قضايا أمن عالمي. كنت أعتقد أن الكونغرس والسلطة التنفيذية يجدان، نظراً لبعض الرهانات القائمة، بعض الفائدة في التعامل مع الالتباسات القانونية.

obeikandl.com

لقـد تعلمت بوضوح الدرس الخاطـئ من مقاومتنا الناجحة للضغوط علـى اليونان. لا توجد مجموعة ضغـط في الولايـات المتحدة تحض على «معاقبة» اليونان. بعد أن عـادت الديمقراطية إلى اليونان قامت أثينـا بجهـود استثنائية مطالبة بمعاقبة تركيا. ومثل موقف الجالية اليهودية من تعديل جاكسون ـ فانيك، فـإن الأقلية اليونانيـة الأمريكية كانت عاطفية جداً بحيث حرمت قادتها من أيـة مرونة أو حرية الحركة. لقد أصروا على نتائج لا تتحقق إلا بعمل عسكري أمريكي أو بعقوبات كافية لردع تركيا. وأي نتيجة من هذه النتائج لم تكن في مصلحة أمريكا القومية أو مصلحة حلف الأطلسي.

بهذه الطريقة كانت قدرتنا على إدارة الأزمة تتراجع يوماً بعد يوم. إحدى هذه الصعوبات أن المفاوضات السياسيـة بـدأت في مرحلة مبكـرة جداً، ولا سيما بسبب وصول فريق سياسـي جديد تماماً إلى الحكم في اليونان قبل 24 ساعة من المفاوضات. كانت تركيا مصممة بالطبع على تحقيق مكاسب كبيرة.

فـي استعـادة للماضـي ربما كان علينـا أن نماطل قليلاً بالوقت حتـى تصبح الحكومـة اليونانية أكثر انتظاماً، وتتم تسوية مصير نيكسون. وفي اليوم الذي تقرر فيه أن تبدأ المفاوضات، وهو يوم 24 تموز، لم يكن من الواضح أبداً إلى متى ستستمر ولاية نيكسون. وكان كالاهان على حق في بدء المفاوضات بسرعة خوفاً من انفجار أعمال عنف وعداوة جديدة.

المفاوضـون اليونانيـون المشغولـون بتشكيـل الحكومة كانوا بطيئيـن في الوصول إلـى جينيف وهدد كالاهـان بأنـه سيبدأ المفاوضات بدونهم. وهي خطوة عارضناها بقـوة. وعندما التقى الفرقاء أخيراً في 25 تموز، بعد 24 ساعة من التأخير، وضعوا جانباً المسائل السياسية من أجل استقرار وقف إطلاق النار. وفـي 26 تموز، هدد رئيـس وزراء اليونان الجديد كونستانتين كاراميليس. التواق إلى إظهار نفسه بمظهر المدافـع عن مصالح اليونان. بفض المفاوضات بسبـب اختراق تركيا لوقف إطلاق النار. وتلقي إيكيفيت تحذيـراً يـوم 28 تموز، واحتج على مـا وصفه بتصرف كالاهـان المتعجرف. استطاع كالاهـان، متجاوزاً هـذه الأمـور، تحقيق اتفاقية لوقف إطلاق النار يـوم 30 تموز، والتي تتضمن وقـف النشاطات الهجومية، وانسحاب القوات الخارجية، وإقامة منطقة عازلة بين الفريقين المتنازعين.

في 31 تموز حُلّت قوة المهمات التابعة لوزارة خارجية قبرص. مرة أخرى كنا نعيش في وهم أن الأزمة فـي طريقها إلى الحل. قبل أن يبدأ الجانب السياسي من مسيـرة السلام أضعفت استقالة نيكسون الدور المهـم لجهـود كالاهان. والفرصة للإسهام بشكل مؤثر في الوساطة السياسية التي كان من المقرر لها أن تبدأ في 8 آب قد انهارت.

قبـل أن يبـدأ الشكل السياسي لعملية السلام في الظهور، وقت استقالة نيكسون دعامات الدور المهم بالنسبة من خلال جهود كالاهان. الفرصة التي أعدت بعناية للمساهمة بشكل كبير في الوساطة السياسية التي كان من المقرر أن تبدأ في 8 آب قد انهارت.

تجلت استراتيجيتنا للعمل كوسيط أمين في التعليمات التي وجهت إلى آرثر هارتمان، مساعد وزير الخارجية لشؤون أوروبا، الذي حل محل سيسكو كمبعوث لنا في المفاوضات، ذلك أن سيسكو كان من الضروري أن يعود إلى واشنطن استعداداً لوصول وزراء خارجية دول الشرق الأوسط. وكان على هارتمان أن يزور أثينا وأنقره قبل أن تبدأ المفاوضات السياسية في 8 آب:

> ينبغي بذل كل جهد ممكن في الأيام الأولى للحيلولة دون انفجارات عاطفية، أو أية أفعال أخرى يمكن أن تغضب أحد الفريقين.

ولكن لم يكن ثمة وقت للشروع بمفاوضات الدبلوماسية البطيئة. لم أكن أتوقع أنا أو كالاهان تحركاً عسكرياً تركياً آخر خلال الأيام الأربعة الحاسمة للمفاوضات السياسية، حيث كان اهتمامي وعواطفي مركزة على مغادرة نيكسون والاستعداد لانتقال السلطة إلى فورد.

لعله كان من الأكثر حكمة أن نطلب تأجيل المفاوضات السياسية إلى ما بعد إعلان استقالة نيكسون. ولكن مثل هذا الطلب قد لا يلقى آذاناً صاغية. فقد كان لكل من كالاهان وايكيفيت أسبابهما لعدم التأجيل. ومع هذا كان التأجيل يمثل أفضل فرصة لنا لإعداد مشروع تسوية يحول دون جولة ثانية من القتال. وبالفشل في هذه المهمة، كنا غير قادرين على السيطرة على الوضع كما كنا سيطرنا عندما أصررنا على وقف إطلاق النار قبل ثلاثة أسابيع.

ضيّق التحول الرئاسي من خياراتنا أكثر لأنه حال دون بعض الخطوات الدراماتيكية مثل حضوري المفاوضات، الذي كان من الممكن على الأقل أن يُبطئ الاندفاع نحو العمل العسكري. كما أننا لم نكن قادرين في الأيام الأولى لاستلام الرئيس الجديد غير المنتخب للسلطة، أن نحدد تحركاتنا العسكرية. ولهذا رفضنا طلب كالاهان بتأييد ضربة جوية بريطانية ضد اختراقات تركيا لوقف إطلاق النار. وأرسلت برقية إلى هارتمان:

> من غير المعقول أن نطلب من رئيس منذ اليومين الأولين لولايته أن يؤيد القيام بعمل عسكري... سنفعل كل ما يمكن القيام به للمحافظة على استمرار المفاوضات، ولكن ليس لدينا إلا هامش ضيق للمناورة إذا ظل (كالاهان) يلوح بالسيف.

كانت الوفود في حالة جمود ووقعت في مأزق عميق مع مباشرة المؤتمر. لم تستطع أن تتزحزح عن مواقفها الأصلية. فمن خارج المؤتمر كان وزير الخارجية التركي يصر على منطقة تركيةً تطل على البحر. وكانت الحكومة اليونانية واقعة بين نار اليسار القوي المطالب بقومية يونانية، وبين العسكريين الذين يريدون أن ينتقموا لهزيمتهم. ومع اقتراب أول انتخابات برلمانية منذ نحو عقد من الزمن، فقد لجأت الحكومة إلى العناد والتصلب ورفضت جميع الاقتراحات التركية مع عدم طرح أية بدائل. وذلك لكسب الوقت كما اعتقدت.

كان كارامانليس، الذي عاد بقوة من منفاه في باريس يواجه خياراً مصيرياً. عندما قابلته قبل بضع سنوات في باريس، في منزل الصحفي سي ل. سولسبرغر، من صحيفة نيويورك تايمز، فاجأني بذكائه واحتياله، ولكنه كان يعيش في الماضي، في وحدة كئيبة، وبعيداً عن مستقبل بلاده بسبب الجغرافيا والحنين إلى الماضي. ولما كانت عودته إلى السلطة قد جاءت بسبب تهور الطغمة العسكرية، وليس بجهوده الخاصة، فقد كان يفتقر إلى البطولة، هذا إذا كان يتحلى بها في يوم من الأيام، والآن يخفي تردده وراء غرور مزعج.

عندما عاد كارامانليس إلى السلطة كان عليه أن يختار بين أن يضع اللوم على من سبقوه بسبب الفوضى، أو أن يضع، بمساعدتنا، وبسرعة أفضل الشروط المتوفرة، أو أن يسعى لتجنب انتقاد القوميين، إلى الاحتماء خلف موقف العسكريين القومي التقليدي. الخيار السابق كان سيمكنه من أن يضع قبرص أمام خطر اضطراب سياسي فوري. اعتماده على ورقة القوميين قد أسكتت الانتقادات لوقت قصير، ولكنها كانت محكومة بالفشل وبالتالي جعلته يبدو غير فاعل. وبالنتيجة هُزم كارامانليس على يد المنتقدين الذين حاول أن يسترضيهم. وهو لم يكن يخشى من المعارضة اليونانية فحسب، بل ومن ماكاريوس، الذي كان يصر على بقاء الوضع القائم على حاله.

ما كان يدور في ذهني وأؤمن بإمكان الحصول عليه هو منطقتان أو ثلاث مناطق متفرقة للأقلية التركية، مما كان يحول دون التقسيم. شرحت ذلك للرئيس فورد في 10 آب، أي في أول يوم استلم فيه السلطة:

كيسنجر: لدينا بعض التطورات حول قبرص. حتى أعرف كيف تريد أن تعمل، أعتقد أنه ينبغي أن أبحث معك بعض هذه الأفعال. أنت تعلم أن اليونانيين والأتراك يجتمعون تحت رعاية البريطانيين في جنيف، ولدينا سكرتير مساعد هناك كي يساعد بشكل عام.

فورد: هل هو سيسكو؟.

كيسنجر: لا. آرت هارتمان... الأتراك يريدون نتيجة سريعة تفضي إلى تقسيم الجزيرة إلى جزأين تركي ويوناني مع شكل من أشكال الحكومة الاتحادية. إنهم يملكون 15% من الجزيرة ويريدون 30% قد يحاولون السيطرة عليها. تكلمت مع رئيس وزراء تركيا. كان تلميذي، وقد أخبرته أننا لا نستطيع. في غضون اليومين الأولين من حكمكم. أن نرتاح لعمل عسكري منفرد.

فورد: طبعاً لا.

كيسنجر: إذا حدث هذا فقد ننفصل عن تركيا، وهو ما نحاول تجنبه. خطرنا هو تركيا ولهذا يجب

أن نتـاور بدقـة. قد ينقلبـون إلى قوميين جـداً، والروس قد يستغلون ذلـك، ولكننا لا نستطيع أن نتركهـم يتصرفـون بمفردهـم. سأكتب رسالة إلـى إيكيفيت. أكتب إليـه باسمي حيث أرى المفاوضات جامدة. الأتراك يقترحون منطقتين: إحداهما تركية والأخرى يونانية. أعتقد أننا نستطيع أن نقنع اليونانيين بحيث يقبلون بمنطقة أو منطقتين تركيتين أو ثلاث مناطق مستقلة ذاتياً. وهذا ما يجنبنا ترحيل السكان.

فورد: هذا صحيح.

كيسنجـر: هذا سيمنحنا فرصة لاستبعاد العمل العسكري إلى أن يتوصل وزراء الخارجية إلى تسوية ما.. «الفكرة العامة» أن نتخذ موقفاً يقع ما بين الموقف البريطاني والموقف اليوناني والموقف التركـي بحيث نحسن المطلـب التركي دون أن ندع الأتراك يدعـون أننا نعارضهم وفي الوقت نفسه نقف موقفاً قوياً ضد تحركات عسكرية تركية من جانب واحد.

ولكـن تسويتـي كانت على وجه الدقة ما رفضها بعناد مافروس، وزيـر خارجية كاراماناليس. الإجراء العملـي أن يمارسـ ايكيفيت تاكتيكـه المجرب مع بعض المرونة خارج نطـاق المفاوضات. وهذا سيحدث للمـرة الثانيـة لأننا في المرة الأولى كنـا مشغولين بالتبـدل الرئاسي، وفي النـزاع العرقي، يجد الطرف الأضعـف عـادة أنه من الأسهـل أن يقبل بحل مفروض مما يوافـق على نتيجة أفضل مـع تقديم تنازلات. التسوية تتضمن قراراً، في حين أن الوضع الراهن يُحل الضحية من أية مسؤولية لإيجاد مخرج.

لما كنت غير قادر على التقدم دبلوماسياً مع عناد كل طرف جعلت وزارة الخارجية تنشر بياناً في 13 آب يلخصـ الأفكار التي وضعتها أمـام فورد. إنه يؤيد إعطاء الأقلية التركية فـي قبرص استقلالية ذاتية أكبر ـ إشارة إلى أن الولايات المتحدة تفضل تغييراً لما هو وارد في اتفاقيات لندن ـ زيوريخ. ومع الإشارة إلى أننا نؤيد إصرار تركيا على منطقة مستقلة وحيدة مع إطلالة على البحر. تحدثنا عن مفاوضات تشمل البحـث في منطقة أو منطقتين مستقلتين ذاتيـاً، دون ذكر أي شيء عن الإطلالة على البحر. ورفضنا أية محاولة لحل عسكري، وأوضحنا موقفنا من أية عمليات عسكرية جديدة من جانب تركيا:

الوسائـل الدبلوماسيـة لـم تستنفد بعد ولهـذا فإن الولايات المتحـدة ستعتبر اللجـوء إلى العمل العسكري عملاً غير مبرر [7].

لـم يُرض البيان أي طرف. فاليونـان لا تقبل فكرة المناطق المستقلة ذاتيـاً، وتركيا مصممة على ألا تظـل رهينـة مفاوضات لا تنتهـي مما يجعلها لا تستفيد مـن الفرصة الوحيدة المتاحـة من خلال التحول الرئاسـي. فـي الساعة 7 صباحاً بالتوقيـت المحلي فـي 14 آب قطعت تركيا عقدة غورديـان(*) باحتلال

(*) العقدة المستعصية أو العقدة التي قطعها غورديوس بسيفه ـ المترجم.

الأراضـي التـي كانت تطالب بهـا. ولما كانت أنقره قد عـززت قواتها في الجزيرة فقـد وسّعت على جناح السرعـة المنطقـة التي كانت تحت سيطرتها. وبعـد أن فتح ايكيفيت جميع المناطـق المتنازع عليها قدمَ فـي 15 آب واحدة من مبادرات حسن النية الفارغة. فقد فوضني بإعلام الحكومة اليونانية والأمين العام للأمـم المتحـدة أن العمليـات التركية العسكرية ستتوقـف عند ظهر اليوم التالي. فـي غضون ذلك تكون القوات التركية قد احتلت مزيداً من الأراضي أكثر مما كانت تطالب به في الأصل، وتكون قد احتلت 35 % من مساحة الجزيرة، بما في ذلك ميناء فاماغوستا الذي لا يضم إلا القليل من السكان الأتراك.

غيـر راغبين في التوقف ما بيـن النصر الكامل والهزيمة الشاملة فقد وصلـت كل من تركيا واليونان إلى طريق مسدود. تركيا قد حققت فائدة ولكنها كانت تفتقر إلى الاعتراف الدولي بشرعيتها، أما اليونان فكانـت تحظى بدعم دولي ولكنها تفتقر إلى الوسائل لفرض آرائهـا والدعم المحلي لطرح تسوية واقعية. محاولـة أمريـكا لحشد الدعم الأمريكي وحلف الناتو من أجل التوصـل إلى تسوية يتطلب تنازلات من كلا الطرفين قد أفسدها الهجوم التركي الثاني وانهماكنا بالتحول.

كنا مستعدين للمساعدة في إيجاد مخرج مقبول لكلا الطرفين. وإذا ما نجحت الوساطة فإن السرعة هـي الجوهـر، ينبغي تحقيـق تقدم قبل أن يسيطـر الأتراك على المناطـق المحتلة ويتشبثـوا بها. وكانت الأوضـاع الداخليـة فـي كل عاصمة ـ بما في ذلـك واشنطن ـ تحول دون ذلك. فقـد أُغريت أثينا من قبل مجلسها المُحدث ووسائل الإعلام الحليفة بالاعتقاد أن الضغوط الأمريكية يمكن أن تحقق جميع أهدافها بـدون أية تنـازلات يونانية. أما في أنقره فإن ائتلاف ايكيفيت الهش كان منقسماً على نفسه. في الداخل كانت طاقات الإدارة الجديدة تتبخر في محاولة مجابهة سيطرة الكونغرس على السياسة الخارجية، وفي المعركة على العلاقات بين الشرق والغرب.

فـي نهايـة تلك الأيام الطويلة في محاولة التدخل مع كلا الطرفين وجـدت أنا وكالاهان أننا متقاربان بشأن النزاعات العرقية وما يمكن أن تنذر به بالنسبة لمستقبل العالم كما نعرفه:

كيسنجـر: هل تعلم، أحد الموضوعات التي أخطأ فيهـا جميع الإنسانيين والليبراليين والاشتراكيين في القرن الأخير أنهم ظنوا أن الإنسان لم يكن يحب الحرب.

كالاهان: نعم

كيسنجر: إنه لأمر مؤسف ولكن...

كالاهـان: لقـد توصلت إلـى هذا الاستنتاج منـذ عدة سنوات عندمـا شاهدت الموقف فـي إيرلنده الشمالية يا هنري.

كيسنجر: إنهم يحبون ذلك.

كالاهان: هناك فقط حفنة من الشعوب تفعل ذلك لوقت طويل. فمعظمنا يفضل أن يحدث ذلك ليوم أو يومين، ولكن هناك من يحب ذلك إلى الأبد.

كيسنجر: هذا صحيح. هذا لا يعني أن الإنسانيين كانوا على خطأ، إنه يعني أن الحياة أصعب مما كنا نعتقد.

كالاهان: نعم أعتقد أن الحياة تسوء يا هنري.

كيسنجر: أظنك على صواب.

كالاهان: أنا لا أعرف أي نوع من العصور نعيشه أو نمر عبره، ولكن المؤرخين من أمثالك عليهم أن يعطونا تفسيراً حوله أحياناً وكيف سيبدو نصف القرن القادم هذا.

كيسنجر: سأقول لك.. أنا سعيد لأنني لن أكون جزءاً منه. إنه سيكون وحشياً.

الكونغرس وقبرص

كما جرى فإن ضغوط الكونغرس أضرت بقضية اليونانيين بأكثر مما أفادتهم. منذ اللحظة التي عاد فيها كارامانليس قامت الأقلية اليونانية الأمريكية بضغوط واسعة على الكونغرس لشرعنة النتيجة التي توصل إليها. في البداية كان مرتاحاً مع أصدقائه في الكونغرس، مؤكداً لي أن AHEDA ـ منظمة الأقلية اليونانية الأمريكية لم تتورط أبداً بحسب خبرته في قضايا السياسة الخارجية.

سرعان ما تعلمنا أفضل. حتى في قمة الاحتجاجات على حرب فيتنام، كان الكونغرس عازفاً عن تشريع مناهج معينة من العمل، فالقرارات المقيّدة كثيراً ما تفشل، وبدلاً من ذلك ظهرت قرارات «بإحساس من الكونغرس» تسجل وجهة نظر الكونغرس بدون تحمل المسؤولية عن الإجراءات. فكما اكتسبت ووترغيت زخماً، فصل الكونغرس هذه الضغوط ونصح بتكتيكات سياسة قبرص. الأعمال التي قامت بها تركيا في قبرص لم تعتبر دفاعاً عن النفس بموجب أحكام «قانون المساعدات الخارجية». وفي نهاية شهر أيلول صدرت تشريعات عن مجلس النواب والشيوخ بقطع المساعدات عن تركيا، «إلا إذا برهن الرئيس عن وجود تقدم حقيقي نحو الاتفاق».

أثار التشريع دائرة من الشر. فإدارة فورد كانت قد التزمت بتشجيع تسهيلات كبيرة من تركيا. ولكن ما إن أعلن الكونغرس نفسه حكماً بشأن ما يتم إحرازه من تقدم، فإن تحديده سيتجاوز إمكانات الدبلوماسية. لم تكن المسألة «من يسيطر» على السياسة الخارجية، كما يطرح أحياناً بعض المنتقدين وزعماء الكونغرس. إن نظامنا في فصل السلطات يقتضي ألا يكون لأي فرع هيمنة كاملة. أسلوب الحكم الأمريكي يعمل جيداً عندما يركز الكونغرس على الإشراف العام على السياسة بعيدة المدى دون أن يتدخل في التاكتيكات اليومية، وهي مهمة غير منظمة وتفتقر إلى نظرة محددة.

قانـون الكونغرس أداة متبلدة. وتحريرهـا يتطلب كثيراً من الإجراءات مترافقـة مع أغراض متنوعة ومختلفـة غالبـاً. وقانون الكونغرس يمكـن أن يُغير بالتوصل إلى إجماع مماثل ضـده. لذلك فإن تشريعات الكونغرس يكاد يكون من المستحيل أن تتجاوب مع المفاوضات المتحركة بسرعة، ولا سيما بين الأطراف العرقيـة المتشنجـة أو عندمـا يكـون التقدم يعتمد علـى السير ببطء من فـارق دقيق إلـى آخر. الأنصار يصبحـونَ عازفين عن إظهـار نياتهم: الجانب الذي يسانده الكونغرس لـن يخاطر بضغوط مستمرة على الكونغرس، بينما يخشى الجانب الذي يوجه ضده التشريع أن تثير التنازلات مطالب جديدة على القاعدة التي تعمل عليها العقوبات.

الفـرق بيـن رؤيـة الكونغرس والهيئـة التنفيذية تصبـح واضحة عندمـا أعرض مجموعـة قليلة من البرقيات من والى أنقره لثلاثة زعماء في الكونغرس مختصين في القضية اليونانية. والغرض هو أن أبين لجون برادماس، وبينيامين روزنتال وبول ساربينيس أنهم يخاطرون بتحالف حيوي بدون تحقيق تقدم في القضيـة القبرصيـة الجامدة. ومع أنَّ هؤلاء كانوا من أبرز النـواب المسؤولين فقد كانت المراهنة عليهم خاسـرة. كانت القاعدة الفكرية للكونغرس تبرير إصدار قرار تشريعي، عقلية إدارة عملية مستمرة. إنهم يتعاملون مع الأمور المطلقة. لقد أراد من يفاوضونني أن أعترض على كل نقطة تثيرها الحكومة التركية، وكنـت أرى أن مـن الحكمة أن نحتفظ بما لدينا من رصيد من الثقة فـي أنقره من أجل العملية التفاوضية بدلاً من هدرها في نقاط جدلية.

ومـن دواعي التناقض أن كارامانليس أصبـح أسير مؤيديـه الأمريكيين وأسيـر القوميين اليمينيين واليساريين داخل اليونان. فعـذر أمريكا الذي تجلى في تأييدها المزعوم لانقلاب قبرص ثم الإخفاق في حمايـة اليونان من نتائجه أصبح الحديث السياسـي لليونانيين ـ كانت العواطف لسوء الحظ لا تتوافق مع الواقـع. لم يكن ثمة دليل علـى أي من هذه الافتراءات، فالحكومة اليونانية لم تثق أبداً بالجهود الأمريكية فـي عهـدي نيكسـون وفورد بإعاقـة التحـركات التركية، أو تحقيـق وقف إطـلاق النار، والإسـراع بزوال سامبسـون في نيقوسيـا وحكومة الانقلاب العسكري في أثينا، ثم للتفاوض مـن أجل وضع أفضل لقبرص وعلـى النقيض من ذلك، عندما واجه أنور السادات تحدياً مشابهـاً، طلب تأييد أمريكا في الحصول على تنـازلات من اسرائيل. وهو قد فعل ذلك بمنح الولايات المتحدة صفة العدالة التي كنا ملزمين بتحقيقها. أمـا كارامانليـس ورفاقه فقد نحوا نحواً آخر. فهم عندما لم يشجعـوا بأنفسهم الانتقادات على تصرفات أمريكا، فإنهم لم يدافعوا عن واشنطن عندما كان يتهجم عليها الآخرون.

رحـب كارامانليـس بالوساطـة الأمريكية بصورة شخصية فـي الوقت الذي كان فيـه وزراؤه ينتقدون وسطاءنـا علانيـة. الحكومة اليونانية شجعت جهودنا بدون أن تلزم نفسهـا بالمشروع، أو بالنتائج. طلبت منا أن تدفع الأتراك إلى تقديم تنازلات بدون أن تخبرنا كيف نرد على ذلك. وفي شهر أيلول 1974 أخبرنا

وزير الخارجية مافروس إنه يفضل عدم اتخاذ موقف في المفاوضات إلى ما بعد الانتخابات اليونانية في 17 ت2، ممـا يعني إضاعة شهرين. وفي غضون ذلـك، أكد ايكيفيت ـ الذي كان مُنظم غزو قبرص ـ على أكثر موقف لتقديم التنازلات ـ باستقالته.

بعـد مرور سنة كانـت السياسة اليونانية توجههـا الشؤون الداخلية، ففي 30 تمـوز، 1975، في مؤتمر الأمن الأوروبي في هيليسنكي سأل فورد كارامانليس أن يخبره بشكاوى اليونان، إن كان ثمة شكاوى، تجاه السياسـة الأمريكيـة الحالية، وفوق ذلك، ما هي التوصيات بشأن المستقبل القريب. لم يقدم كارامانليس ولا وزيـر خارجيته ديميتروس بيتسيوس أية اقتراحات، ونفى بشـدة الاتهامات التي يشيعها مؤيدو اليونان فـي الكونغرس بأننا يمكـن أن نتواطأ مع الأتراك، قائلاً: «هذا افتراء وهو غير صحيح». وعندما طلب منه فورد أن يعلن ذلك صراحة على الملأ، تراجع كارامانليس وقال إن هذا سيكون بمثابة «انتحار سياسي».

كانت المماطلة اليونانية مكسباً لتركيا، إذ كلما طال جمود الموقف استطاعت تركيا أن تثبت أقدامها أكثـر وتستفيـد مما حققته. عندما رفضـت الحكومة اليونانيـة، بعد التدخل التركي الثانـي، المفاوضات الرسميـة أرسلـتُ السفير الأمريكي المتقاعد وليـام روتيلز إلى أثينا والسفير ويلـز ستابلر إلى أنقره في بدايـة شهـر أيلول في مهمتيـن رسميتين ليقـررا إذا ما كانت ثمة مرونـة تجاه الوساطـة الأمريكية. كان مبعوثانـا من بين العاملين فـي وزارة الخارجية، وقد خدم تيلر بامتياز سفيـراً ومساعداً لوزير الخارجية للشـؤون الأوروبية. وكان لديهما تعليمـات بطرح فكرة اتحاد منطقتين من قبرص وتخفيض كبير للمناطق التي تسيطر عليها تركيا، وكذلك انسحاب القوات التركية. (وظلت هذه الشروط الأمريكية قائمة لمدة 25 سنة تالية ماعدا تقليص حجم الأراضي التركية).

لم يكن كارامانليس مستعداً للقبول ببعثة رسمية. كما رفض كارامانليس اتخاذ أي موقف يوناني حتى تتخذ تركيا إجراءات وحيدة الجانب غير محددة، ومتميزة. ومع هذا قمت بالمحاولة، واقترح إيكيفيت بعض الإجراءات على الأرض، بما في ذلك إعادة مدينة فاماغوستا إلى إشراف اليونان. ومن أجل أن استكشف أن تركيا يمكن أن ترحب بصيغة تحفظ ماء الوجه بحيث تبدأ عملية المفاوضات بسرعة اقترحت أن أزور أنقره في بداية ت1.

لـن نعرف أبداً ماذا سينتج إذ في 17 ت1، 1974، صـادق الكونغرس على قطع المساعدات العسكرية عن تركيا، بما في ذلك أجهزة دفع ثمنها مقدماً. (بناء على طلب فورد منحت فترة سماح لمدة 4 شهور، حتى 5 شباط، 1975 إذا ماتحقق تقدم في المفاوضات).

هـذا مـا أبعد الطرفين عن المرونـة. فبالنسبة للحكومـة اليونانية كان تدخل الكونغرس بمثابة أداة لاستبعـاد التنازلات التي كان معظم النواب العاقليـن يعتبرونها ضرورية. من جانبها استقبلت تركيا قطع المساعـدات بغضـب وارتياح معاً: الغضـب لأن حليفها الأول حوّل المساعدة إلى عمليـة ابتزاز، والارتياح لأنها قدمت مبرراً أن تطلب مني تأجيل رحلتي إلى أنقره المقرره لمناقشة التنازلات التركية.

بشعور كابوسي وجدتني أُجري مناقشات مع وزير الخارجية اليوناني ورئيس الجالية اليونانية الأمريكية أنـه فـي سياق تعديل جاكسون ـ فإني فشلت في إقناع الإسرائيليين وزعماء اليهود الأمريكيين، ثم ناقشت عبثـاً ـــ وهو ما ثبتـت صحته فيما بعد ـ أن التشريـع الوشيك سوف يخفض بدلاً مـن أن يزيد الهجرة من الاتحـاد السوفييتـي. وأصرّرْتُ هنـا على أن قطع المساعـدة المقترح سوف يضر بالقضيـة اليونانية لأنه سيؤخـر إن لـم يمنع التنـازلات التركية في الوقت الذي ما يـزال الوضع فيه مائعاً. وكمـا فشلت في إقناع الزعماء الإسرائيليين أن من مصلحتهم الاعتدال في مطالبهم، فأنا أكرر الآن العملية ذاتها مع اليونانيين والزعماء القبارصة. وكلاريديس، الذي عُين رئيساً بفضل مساعدتنا لم يدّع فحسب أنه يعرف كيف يصل إلـى رئيس اللوبي الأمريكي ايغوين ث. روسيديس بل وحثنا على أن تقوم بريطانيا بالاتصال. في 26 أيلول أعلمـت قيـادة الكونغرس أنـه إذا كان التهديد بقطع المساعـدة يمكن أن يحقق بعض الفائدة فعلاً فإن تنفيذه سيكون كارثة.

> اليونانيون يتوقعون تنازلات لا يستطيع أحد أن يحصل عليها، هذه القيود سوف تجعلنا نفقد الأتراك دون أن نساعد اليونانيين وسندمر العملية (التفاوضية) التي كنت أصفها.
>
> جميـع الأطـراف كانوا على شفا أن يصبحـوا أسرى العملية السياسيـة الأمريكية. كانت حكومة فورد مستعدة أن تقوم بكل ما في وسعها لتحسين الوضع اليوناني في قبرص. ولما كنا قادرين على التحرك بنشاط في شهري آب وأيلول عام 1974، كان ثمة فرصة لتقليص المساحة التي سيطرت عليها تركيا إلى 25% من الجزيرة وضمان الانسحاب التركي من المدينة القديمة نوماغوستا، وفرض قيود شديدة على القوات التركية في الجزيرة، ولكن عجزنـا عن أن نستكشف جدياً أية بـادرة مرونة تركيا جمد الاحتلال التركي عند حدوده القصـوى وسهل السيطـرة التركية المطلقة. وبعـد ربع قرن ما تزال تركيـا تسيطر على 35% مـن قبرص، والمنطقتان معزولتان عـن بعضهما بخط فاصل تشـرف عليه الأمم المتحدة.

فـي خريـف 1974 كانت فرص الوساطة الجديـدة تتبخر. ففي 8 ت1 عيـن كارامانليس حكومة مؤقتة لتسييـر الأمور وأجـرى انتخابات في 17 ت2 (نوفمبر) معززاً بذلك فجـوة الدبلوماسية. تعرض ايكيفيت للهجـوم مـن قبل حلفائه في «الناتو» على عنـاده، فيما وجد نفسه متهماً من شريكـه القومي في التحالف بالتساهـل. وفي شهر أيلول استقال ايكيفيت آمـلاً بالحصول على شعبية يوفرها له نجاحه في قبرص كي ينال الأكثرية في انتخابات تالية.

أخطـأ الحساب في هذا. فخلافاً لرئيس وزراء بريطانيا فـإن رئيس حكومة أنقره ليس لديه صلاحية حـل البرلمان، إذ إن مثل هذا القرار تتخذه الأغلبيـة البرلمانية فقط. وأصيب البرلمان التركي بالجمود.

فهو غير قادر على تشكيل حكومة ائتلافية جديدة، كما يفتقر إلى الأغلبية على حل نفسه لأن الأغلبية التي هزمت ايكيفيت كانت تواقة إلى عدم عودته إلى المجلس. كان ايكيفيت خارج المجلس لبضع سنوات، ولكنه عاد كرئيس للوزراء ثلاث مرات منذ ذلك الحين.

شُكلت حكومة مؤقتة ترأسها أُستاذ غير سياسي من جامعة أستامبول. كان يبدو غير مطلع على أسماء زملائه، فضلاً عن الزوار الأجانب (بمن فيهم أنا). مثل هذه الحكومة ـ التي بقيت في السلطة ستة أشهر حاسمة ـ لم تكن قادرة على التفاوض جدياً حول قبرص، ولم تحاول أن تفعل ذلك.

في 7 ك1 (ديسمبر) 1974 عاد ماكاريوس إلى قبرص، مما قيد حرية حركة جميع الأطراف. وشهراً بعد شهر تحولت قضية قبرص إلى نمط سيصبح فيما بعد مألوفاً مع نمو النزاعات العرقية، والتي غالباً ما تكون نتائجها مذبحة للأقلية، أو تفريقاً للجماعات العرقية بدلاً من إحياء الوحدة السياسية.

في نهاية عهد ولاية فورد، كان الترتيب على الأرض في قبرص أقل ملاءمة للجانب اليوناني بكثير مما كان يمكن تحصيله في المفاوضات. ولكن كانت له فائدة بالنسبة للشعب اليوناني لأنه فرض كأمر واقع وليس كنتيجة لاتفاقية تسوية. وقد نشأ نوع من التوازن حيث حقق القبارصة اليونانيون اقتصاداً نشيطاً مزدهراً، أما قبرص التركية ـ الثلث الشمالي الزراعي من الجزيرة ـ فقد أصبح قاعدة عسكرية تركية. البلدان الأساسيان (تركيا واليونان) لم يخوضا بعد ذلك حرباً من أجل إخوتهم القبارصة، ولكن أياً منهما لم يكن مستعداً لاستئناف علاقات طبيعية.

الحظر الأمريكي على المساعدة لتركيا كان ساري المفعول في 5 شباط 1975. بالمقابل أغلقت تركيا جميع المؤسسات الأمريكية العسكرية ما عدا قاعدة جوية واحدة. ومع تحول الوضع في قبرص إلى الجمود فإن القطيعة كانت غير مؤاتية للأهداف الاستراتيجية الأمريكية الأخرى مما جعل إدارة فورد وقيادة الديمقراطيين في الكونغرس يرغبان في إنهائها. ولكن نظام الكونغرس قد تراجع كثيراً بعد فترة «إصلاح» ما بعد دوترغيت ولم يرفع الحظر في النهاية حتى مجيء إدارة كارتر.

ما إن عاد ماكاريوس إلى قبرص حتى بدأ يلعب لعبته المعقدة، التي تنتهي بالتدريج إلى تسوية بشروط كان يرفضها بعناد قبل سنتين. وعندما توفي بسبب صدمة قلبية عام 1977، شعرت أنه مع موت المطران مات أيضاً أفضل أمل من أجل تسوية تفاوضية سريعة في قبرص. رغم كل ما قيل عن ماكاريوس، كان أكثر من أي زعيم قبرصي آخر، يملك المخيّلة التي تجعله يقبل بالواقع وبشرف قيادة مناصريه في اتجاه تلبية حاجاتهم. أستطيع أن أتخيل النظرة التهكمية في عيني المطران عندما يعرف كيف أخطأته سهام منتقديه ويتذكر مناوراته الماكرة من حين إلى آخر. كان ماكاريوس رجلاً كبيراً في عالم لم يقدره حق قدره.

استنتاج

كانت قضية قبرص بداية فظة ودلالة منذرة على مشاحنات قادمة. كان الرئيس يستمع مني يومياً ومن برينـت سكوكروفت إلى تقرير موسـع، ويقوم بدور فعال، ولا سيما مع الكونغرس. ولكن أبعاد القضية تعود إلى ما قبل مجيء فورد إلى الإدارة، والعملية العسكرية التركية الثانية، وكذلك قطع الكونغرس المساعدات عن تركيا، حدّت بشدة من الخيار الدبلوماسي.

فـي النهايـة حققت إدارة فورد أهم أهدافهـا: الجناح الشرقي «للناتو» رغم توتـره، ظل سليماً. ورغم استياء اليونانيين من غضب الأتراك على الكونغرس، فإن البلدين ظلا في حلف «الناتو» وعلى علاقة ودية مع الولايات المتحدة. وظل الاتحاد السوفييتي على مرمى السلاح.

إذ كان النجـاح يقاس بحل كل مشكلة فإن سياسة أمريكا في قبرص أخفقت في تحقيق دولة قبرصية واحـدة. ولكن ليس كل مشكلـة لها حل حاسم، وليس كل وضع راهن ساكن فـي الحاضر يمكن أن يستمر. النـزاع العرقي بين اليونانيين والأتراك في قبرص أظهـر أنه غير قابل للحل لعدة قرون. ولكن المحافظة علـى السلام العـام وعلى بنية التحالف الغربي الـذي يعتمد عليه السلام كان مـن الأهداف الهامة. هذه الأهداف حققتها إدارة فورد في أزمة قبرص عام 1974.

obeikandl.com